

تمهيد :

عُنِيَ عرب الأندلس بالشعر كما عني به عرب المشرق و انتشر عندهم انتشاراً عظيماً ، و لبث منتشرًا زهاء ثمانية قرون بين الخاصة و العامة من العرب ، و من سكان البلاد الأصليين الذين استعربوا ، و قال الشعر الملوك و الأمراء و الوزراء كما قاله و حفظه عامة الناس؛ كذلك اهتم بالشعر نساء الأندلس و كان بينهم شواعر كثيرات (1).

و بقيت صناعة الشعر أمرًا ضروريًا لمن يريد أن يتصل بالملوك ، و يجتمع بهم ؛ إذ كان كثير من ملوك الأندلس يتولون هم أنفسهم الشعر، و يشجعون من يقوله ، و يجيزون الشعراء ، و يفتحون لهم أبواب قصورهم .

و اهتم ملوك الطوائف بتشجيع الشعراء عن طريق إغداق الجوائز عليهم، و عقد مجالس خاصة لهم ؛ كما تنافسوا في ضم الأدباء و الشعراء إليهم يتباهون في ذلك حتى قيل: إن أحد شعراء ملوك الطوائف «بلغ به ما رآه من منافستهم في إمداحه أن حلف لا يمدح واحدًا منهم إلا بمئة دينار ، و إن المعتضد بن عباد على شهرته و إفراط هيبته كلفه أن يمدحه فأبى حتى يعطيه ما شرط في قَسَمِهِ» (2).

و لم يكتف ملوك الطوائف بهذا التشجيع بل أن منهم من زاحم الشعراء في صناعتهم و كان بينهم من أثار.

و مع أن الأندلسيين اعتنوا بالشعر عناية كبيرة و انتشر بينهم انتشارًا واسعًا ، فإنهم لم يجددوا فيه و لا يمكن أن نقول :إنهم وصلوا فيه إلى ما وصل إليه شعراء المشرق من حيث الأغراض و العمق في الأفكار و المعاني ، ذلك أنهم كانوا في معظم أدوارهم الأدبية و الشعرية مقلدين لشعراء المشرق يرون فيهم المثل الأعلى للفن الشعري؛ و ظهر هذا التقليد جليًا في بدء العصور الأندلسية ، إذ جاء الشعر بصبغته البدوية ، فكان الشعراء يرجعون بأساليبهم و أفكارهم إلى الأساليب و الأفكار البدوية ، كذلك ظلوا يميلون بأخيلتهم و تصاويرهم إلى مثل ما يميل إليه شعراء المشرق؛ و بقي الشعر في المشرق أنموذجًا لهم

(1) - انظر : سعد بوفلاحة . الشعر النسوي الأندلسي . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . 1995 . ص 28.

(2) - أحمد بن محمد المقرئ التلمساني . نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . ج 2 : ص 128.

في الصناعة و الخيال ؛ فكان بعضهم يعيش مع المشرقيين في المعاني والألفاظ و يحذو حذو الشعراء الجاهليين في الاستهلال بالوقوف على الأطلال و التزام الغزل في بدء القصائد و وصف الليل و النجوم و الأسفار و الخيل و غيرها من مواضع الجاهليين ، و يعتمد في ذلك كله قديم الصور و غريب الألفاظ، و قد بعضهم في العصور المتأخرة الشعراء العباسيين.

و مما يدل على إجلالهم للفن الشعري في المشرق و إعجابهم بشعرائه ، أن أقصى ما كان يطمح إليه الشاعر الأندلسي هو أن يشبهه بشاعر، و يسمى باسمه، فشبها ابن هاني بمتنبي المشرق ، و لقبوا ابن زيدون ببحتري المغرب، و قائمة الألقاب تطول.

هذا و كان الشعر في الأندلس من حيث المواضيع و الأغراض يحذو حذو الشعر في المشرق، فقد نظم شعراء الأندلس الشعر في أغراض المشرقيين من مدح و غزل و وصف و إخوانيات و هجاء و رثاء .

و لكن هذا لا يمنع من القول: إن البيئة الأندلسية تحكمت في توجيه موضوعات الشعر ، فإختلفت هذه المعلومات سعة و ضيقا ، و قوة و ضعفاً ، بإختلاف طبيعة البيئة و ظروفها؛ و قد ساعدت هذه البيئة على اتساع دائرة بعض أغراض الشعر كالمدح و الغزل و الرثاء و شعر الطبيعة و الخمر ، و انعكست أصدائها على شعر شعراء الأندلس ، و من بينهم ابن عمّار، الذي تنوعت أغراض شعره و اتسعت مجالاتها ، فأكثر من المدح . الذي يدور في مجالس القصور الاشبيلية ، و برز — المدح — في شعره خير معبر عن موضوع الحاكم و علاقة الشاعر به ؛ و لما كانت المرأة ملهمة الشاعر ، و سلواه في أيام سعادته . و شقائه، أكثر ابن عمّار من الغزل ، وتنوعت اتجاهاته ، فنظم في الغزل الحسي كما نظم في الغزل الغلmani الذي شاع في تلك الحقبة شيوعاً كبيراً ، و فتن بطبيعة الأندلس ، التي حددت علاقته بها ، و بالمجتمع، وأكثر من وصف مناظرها الجميلة ، كما أقبل على وصف الخمر ، فوصف مجالسها وسقاتها و كوؤسها ؛ يضاف إليها شعر الإخوانيات الذي ينطوي على الشكوى والاستعطاف و العتاب و التهنية و الاعتذاريات ، و كان لذلك كله ظروفه و أسبابه التي سنراها و نقف عليها أثناء حديثنا عن موضوعات شعره .

و لنبدأ بالحاكم الذي لم ينظر إليه ابن عمّار ، نظرة السياسي ، بل رمقه مصدرًا للشهرة و المال تارة ، و تجسيدًا لرؤيته و موقفه من الناس و الحياة⁽¹⁾ تارة أخرى .

أولاً: الحاكم :

(1) - انظر : أيمن محمّد زكي العشماوي . قصيدة المديح عند المتنبي و تطورها الفني . دار المعرفة الجامعية.الإسكندرية .2000.ص 81.

توطئة :

كان للشعر قديماً دور كبير في حياة الحكام ، ومثل الآلة الإعلامية سريعة الانتشار قبل ظهور الصحافة و الإعلام الحديث ، و قد حرص الحكام على تقريب الشعراء منهم، و إمدادهم بالعطايا الجزيلة مقابل مدحهم، و تثبيت دعائم سلطانهم ، حتى وإن كان المدح كذباً -، و رسم صورة مثالية لهم، تضمن استقرارهم على سدة الحكم ، و كم رفع الشاعر من قدر ممدوحه (الحاكم أو الأمير) ووصفه بالكرم و هو البخيل ، و وسمه بالعدل و هو الظالم ، و نعتة بالمروءة و هو النذل ، و أقرّ لشجاعة و هو الجبان ، ولعب دور البوق الدعائي للسلطة .

و المدح فن الثناء و الإكثار و الإحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواحي كثيرة و عديدة من أعمال الملوك و سياسة الوزراء و شجاعة القواد ، و ثقافة العلماء⁽¹⁾ ؛ فأوضح بذلك بعض الحقائق ، وكشف الغطاء عن بعض الزوايا ، و أضاف إلى التاريخ فصلاً ، و ساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لو لاه ، و زاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية، و رفعهم إلى الذروة وجعلهم في مصاف الأعلام ، فالمدح يشكل ديواناً كبيراً⁽²⁾ و جزءاً خطيراً من أدبنا ، يحتل موقعا هاماً من الجاهلية حتى اليوم ، لأنه يُعنى بوصف الرجال و امتداح مزاياهم ، و التعجب إليهم و التقرب إلى مقامهم بأحسن أسلوب و أبرع صورة .

أعجب الشعراء الأندلسيين على غرار شعراء المشرق و شعراء الأمم القديمة و الحديثة بالخلق الحميد و الرأي السديد ، و الشجاعة الفائقة و الكرم الواسع ، فلم يفتهم الثناء على رجال الحكم و السلاطين و الرؤساء الحاكمين و أصحاب النفوذ ، و نظروا إليهم نظرة اعتزاز و إكبار. منوهين بطريقة حكمهم و سياسة رعيّتهم ، مشيدين بعظيم انتصاراتهم التي حققوها في المعارك و ساحات القتال التي خاضوا غمارها ؛ وكان الحاكم

(1) - سامي الدّهان. المديح . دار المعارف. لقاهاة . طبعة 4. (د.ت) ص 5.

(2) - سامي الدّهان. المرجع نفسه. ص 5.

في أشعارهم هو الممدوح الذي يتقرب منه ، راجين رضاه عنهم بتنظيمهم أجود الأشعار في شخصه ، يصفون جماله ، و يشيدون بأعماله علّه يلحقهم ببلاطه ، فينعمون بالشهرة و المال.

و شاعرنا ابن عمّار واحد من هؤلاء المداحين البلاطيين ، فله عدد كبير من قصائد المديح قالها في رجال عصره من الأندلس ، و لعل السبب الذي جعله ينتهج هذا المنهج ، و ينظم في شعر المدح أكثر من غيره ، هو انتسابه إلى أسرة غير عريقة⁽¹⁾، والمدح يفتح له آفاقا للإبداع و التكسب معًا ، و بهذا فالمدح يجب أن «يكون بأفضل ما يتفرغ من تلك الفضائل و أجلها و أكملها كنصرة الدين و إفاضة العدل و حسن السيرة و السياسة و العلم و الحلم و التقى و الورع و الرأفة و الرحمة و الكرم و الهيبة و ما أشبه ذلك»⁽²⁾ وسبيل الشاعر في ذلك «أن يسلك الإيضاح ، و ألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية ، و يجتنب مع ذلك التقصير و التجاوز و التحويل ، فإن للملك سامة و ضجرًا ، ربما عاب من أجلها ما لا يُعاب ، و حُرّم ما لا يريد حرمانه»⁽³⁾.

مدح ابن عمّار بعض الملوك الأندلسيين أمثال المعتضد و المعتمد ، و كان لزامًا على الشعراء المداحين أن يبيثوا الأفكار السياسية التي يتبناها الملوك بعدّ الشعر من الوسائل الإعلامية المهمة في ذلك الوقت ، حتى ينالوا رضا الملوك و صلاتهم ؛ و قد صنع ابن عمّار هذا الصنيع ، فأخذ يدعو في مدائحه إلى مبادئ الأندلسيين، و يركز على الأسس التي قامت عليها خلافتهم، و منها النسب العربي لبني عباد اللخمين ذوي المجد العربي الأصيل ، إضافة إلى بعض الصفات الأخلاقية التي كان يتقصدتها الشاعر تقصدًا و يتعمدها تعمدًا ، لأن الوضع السياسي السائد آنذاك و تمزق الدويلات الأندلسية وإنقسامها يتطلب ذلك؛ و هي الطريق إلى قلوب الرعية ، تكسب ودهم، و تمنع عصيانهم و ثورتهم.

1- الصفات الأخلاقية :

(1)- انظر هذا البحث . ص29.

(2)- أبي الحسن حازم القرطاجني . منهاج البلغاء و سراح الأدباء . تقديم و تحقيق : محمّد الحبيب ابن الخوجة . المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية . تونس . 1966. ص170.

(3)- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده . ج 2: ص 148.

أخذ ابن عمّار يردّد في مدائحه تلك المعاني و الأفكار التي تناولها الشعراء في المشرق ، و لم تخرج صفات الممدوح عن تلك الصورة العامة المحفورة في أذهان الشعراء ، لأنّ الشّاعر «عندما يمدح لا يحاول أن يرسم صورة الممدوح ، و إنما يحاول أن يرسم صورة شخصية تتمثّل فيها الصفات التي يقدرها المجتمع ، شخصية مثالية قد تكون بعيدة كل البعد عن الممدوح إلا أنّ الشّاعر يحاول أن يربطها بشخصيته ، لذلك فإنّ دراستنا لهذا النوع من الشّعر – كما أعتقد – يجب أن تكون قائمة على هذا الأساس ، أي اعتبار كل قصيدة مدح صورة لشخصية مثالية يرسم الشّاعر خطوطها بعد أن يستوحي صفاتها من القيم الخلقية للمجتمع» (1) .

و رأي صلاح خالص هذا صحيح إلى حد بعيد ، فلا يزال الممدوح في الشّعر الأندلسي مثله مثل الممدوح في الشّعر المشرقي ، يتصف بالجد و الكرم ، و الشجاعة ، و العدل ، و ما شابه ذلك من صفات مثالية ليس ضروريا أن تكون فيه على الحقيقة ، ولكن من الضروري أن تخلع عليه و أن تلتصق به.

و من الصفات التي أشاد بها ابن عمّار في ممدوحيه ، صفة القوة و الشجاعة و الكرم و الشرف ، و نتوقف عند رصد الموضوعات التي احتقى بها المديح في ديوانه ، و سنبدأ بأول موضوع يقوم عليه المدح و هو القوة و الشجاعة .

1-1- القوة و الشجاعة :

لقد عُني ابن عمّار بوصف ممدوحه بصفتي القوة و الشجاعة لأنهما محببتان في شخص الرجل العربي ، فبرزت في مدائحه صورة البطل الذي أذل أعناق الملوك المسيحيين ، و أخاف العدو و ثلّ عروشه ، و من هؤلاء الأبطال الذين تغنى بقوتهم و شجاعتهم المعتمد بن عباد ، زعيم العباديين ، و قائد حملاتهم ، و سيف انتصاراتهم في الغزوات و الحروب ، التي شاعت فيها شجاعته و قوته و إقدامه ، مما جعله مرهوب الجانب .

(1) - صلاح خالص . إشبيلية في القرن الخامس الهجري . دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية و تطور الحياة الأدبية فيها . دار الثقافة . بيروت . لبنان . 1981 . ص 88 - 89 .

وابن عمّار يحب تقديم ممدوحه وسط جيشه يخوض غمار الحرب ، و يقتاد الملوك من الجند يقول⁽¹⁾ :

فَتَى تَقَفَّ بَيْنَ الْحَمَائِلِ مُقَدِّمٌ جَنَى الْمَوْتِ فِي كَفِّهِ أَحْلَى مِنَ الشَّهِدِ
و جَنَّدَتْهُ نَحْوَ الْمُلُوكِ مُحَارِبًا فَوَافَاكَ يَقْتَادُ الْمُلُوكَ مِنَ الْجُنْدِ

الشاعر في هذين البيتين يتجه إلى وصف شجاعة الممدوح و بسالته و مقدرته على خوض المعارك ، و إظهار قوته التي تضاهي الأسود في بطشها و قوتها .
ويواصل الشاعر في وصف شجاعة ممدوحه ، و آثار تلك القوة حيث يقول⁽²⁾ :

أَنْتَى يُجَارِيكَ الْعَلَا طَرْفًا وَ لَمْ تَتْرُكْ ظُبَاكَ لِرَاحَتَيْهِ لِبَانَا
هَوْنٌ عَلَيْكَ فَكَمْ جَمُوحٍ قَبْلَهُ أَلْحَمَّتَهُ هَذَا الْحُسَامُ فَلَانَا
وَ ارْتَعَ وَ إِنْ تَبِعَ إِرْتِيَاحَكَ مِنْهُمْ فَلَقَدْ قَبِضَتْ نُفُوسَهُمْ أَثْمَانًا
سَيُنِيرُ رُمْحَكَ كَوَكْبًا تَرْمِي بِهِ مِنْ نَجْلِ إِسْحَاقَ الرَّدَى شَيْطَانًا⁽³⁾
وَ يَشُبُّ سَيْفَكَ فِي الْوَعَى نَارًا تَقْدُ رَبُّ رَأْسَ بَادِيسَ لَهَا قُرْبَانًا⁽⁴⁾

فالشاعر في هذه الأبيات يتجه إلى وصف شجاعة الممدوح و مقدرته في الحروب و بسالته في القتال .

و يقول في حرب المعتمد بن عباد التي قادها ضد باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، والتي أظهر فيها قوة ممدوحه و بسالته :⁽¹⁾

(1) - مصطفى الغديري .شعر محمّد بن عمّار الأندلسي .ص52.
(2) - مصطفى الغديري .المصدر نفسه.ص110 .
(3) - إسحاق : يعني ابن طاهر أبي الرحمن محمّد بن أحمد بن إسحاق القيسي الذي كانت بينه و بين بني عباد حروب ببلنسية .انظر تفصيل ذلك في : أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار.الحلة السيرة . ج 2 : ص 116- 129 .
(4) - باديس : يعني باديس بن حبوس صاحب غرناطة الذي كانت بينه و بين المعتضد بن عباد حروب .انظر تفصيل ذلك في : ابن عذاري المراكشي .البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب .ج3 : ص 274- 296- 312.
(1) - مصطفى الغديري .شعر محمّد بن عمّار الأندلسي .ص 109.

قَمَرٌ أَعَدَّ مِنَ الْجَوَادِ لِحَرْبِهِ فُلُكًا وَ مِنْ حَلْقِ الدُّرُوعِ عِنَانَا
 مَاءٌ إِذَا عَنَتِ الْعُدَاةُ فَإِنْ عَنَتِ نَارٌ تُثِيرُ مِنَ الْعَجَاجِ دُخَانَا
 أَهْدَى نَسِيمُ الْفَتْحِ مِنْ رَوْضِ الظُّبَا غَضًّا يُعَطِّرُ حِمْنَنَا أَرْدَانَا
 وَ جَلَى عَرُوسُ الْمَلِكِ لَمْ يَنْقُدْ لَهَا فِي الْمَهْرِ إِلَّا مُرْهَفًا وَ سِنَانَا
 عُرْسٌ يَعُودُ عَلَى عِدْوِكَ مَاتَمًا وَ مَسْرَةً تُهْدِي لَهُ أَحْزَانَا
 عَنَّتْ بِهِ فِي دُوحِ حِمصِ حَمَائِمٍ نَعَبَتْ عَلَى غَرْنَاظَةٍ غَرَبَانَا

فحرب الممدوح على غرناطة أبرزت صورة البطولة و الشجاعة التي أظهرها قادة الجيش و في مقدمتهم المعتمد بن عباد ، و ما اعتمد الشاعر على إبراز قوة الممدوح في هذه الظروف إلا تعزيرًا لانتصاراته و تخويفًا لأعدائه . فإن مجرد حركة منه تثير الرهبة في الناس ، و يظهر هذا الأثر في قوله : (2) .

مَهِيْبُ الْإِنْفَاتِ الطَّرْفِ سَامٍ مُوقِرٌ عَظِيمٌ إِذَا لَاحَتْ وَجُوهُ الْعَظَائِمِ
 يُذِيبُ بَعَيْنَيْهِ الْعِدَا غَيْرَ نَاطِرٍ وَ يَسْبِي بِكَفَّيْهِ السُّهَى غَيْرَ هَادِمٍ
 إِذَا نَظَرْتَ فِيهِ الْمُلُوكُ تَسَاقَطَتْ لَهُ نُكْسَ الْأَبْصَارِ مِثْلَ الْعَمَائِمِ
 يُغَادِرُ مِنْ لَثْمِ الْمَبَاسِمِ فِي ثَرَى مَوَاقِبُهُ أَمْثَالُ ثَلَمِ الْعَمَائِمِ

و تتجسد صورة الخوف و الهلع لدى العدو في هذه الأبيات حيث يملأ الممدوح قلوبهم رعبًا ، و تنهار معنوياتهم في ساحة المعركة ، و لهذه القوة النادرة التي أظهرها الممدوح صار شاعرنا يفخر بانتصاراته و يهتف قائلاً (1) :

(2) - مصطفى الغديري . المصدر نفسه . ص 104 .
 (1) - مصطفى الغديري . شعر محمّد بن عمّار الأندلس . ص 105 .

إِلَى الْحَاجِبِ السَّامِيِّ إِلَى الْمَجْدِ نَاشِنًا وَ إِنَّ لَمْ تَتَّيَّبَتْ فَأَعْتَبِرَ بِالْمَيَاسِمِ
إِذَا رَكَبُوا فَأَنْظُرُهُ أَوَّلَ طَاعِنٍ وَ إِنَّ نَزَلُوا فَأَرْصُدُهُ آخِرَ طَاعِمٍ
أَعَزُّ مَكِينٌ فِي الْقُلُوبِ مُحَبَّبٌ إِلَيْهَا عَظِيمٌ فِي نُفُوسِ الْأَعَاطِمِ

فالحاكم الأندلسي ، مُدِحٌ بالشجاعة و الإفراط في النجدة ، و شدة الحزم ، و هذه غاية المديح « أن يكون مدرسة خلقية تتخرج فيها الناشئة على الشجاعة و الكرم و الإباء و الأنفة و حب المجد و الطموح إلى المعالي و العدل و الحلم و المروءة ، و غير ذلك مما يصح أن يُمدح به العظماء من رجالات القوم » (2).

و كان ابن عمّار ينتهز المناسبة تلو الأخرى ليمدح المعتمد ، فحين ضيق المعتضد بن عباد على عبد الله محمّد بن عبد الله البرزالي (3) بقرمونة ، استصرخ هذا باديس بن حبوس – صاحب غرناطة- لينقذه من الحصار . و لمّا وصل باديس إلى قرمونة أخرج إليه المعتضد جيشه بقيادة ابنه محمّد الظافر – المعتمد على الله – و عند التقاء الجمعين انتصرت جيوش المعتضد ، و هنئ بهذا الإنتصار ، فقام ابن عمّار و أنشده قصيدته التي يقول في مطلعها(4).

أَلَا لِلْمَعَالِي مَا تُعِيدُ وَ مَا تُبْدي وَ فِي اللَّهِ مَا تُخْفِيهِ عَنَّا وَ مَا تُبْدي

و خلص ابن عمّار إلى مدح المعتمد مرددًا المعاني ذاتها ، كالإشادة بشجاعته في مواجهة الأعداء ، فتغنى بسيف الممدوح ، و اوصفا قوته و بسالته في قوله(1) :

وَ رَبِّ ظَلَامٍ سَارَ فِيهِ إِلَى الْعِدَا وَ لَا نَجْمَ إِلَّا مَا تَطَّلَعَ مِنْ عَمَدٍ
أَطَّلَ عَلَى قَرْمُونَةَ مُتَبَلِّجًا مَعَ الصُّبْحِ حَتَّى قِيلَ كَانَا عَلَى وَغْدٍ

(2)-أحمد أبو حاقّة . فن المديح و تطوره في الشعر العربي . منشورات دار الشرق الجديد .بيروت . طبعة 1962. ص 38.

(3)- عبد الله بن محمّد بن عبد الله البرزالي : هو محمّد بن عبد الله بن اسحاق البرزالي ينتسب الي قبيلة زناتة، هاجر الى الاندلس أيام المنصور بن أبي عامر و استوطن بقرمونة و تولى عليها ، و كان معروفًا بالشجاعة و الدهاء و البخل ، توفي (334 هـ / 1042 م).انظر: ابن عذاري المراكشي . البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب. ج 3 : ص 311.

(4)- مصطفى الغديري . شعر محمّد بن عمّار الأندلسي . ص 51.

(1)- مصطفى الغديري.شعر محمّد بن عمّار الأندلسي . ص 52-53.

فَأَزْمَلَهَا بِالسَّيْفِ ثُمَّ أَعَارَهَا مِنْ النَّارِ أَثْوَابِ الْحِدَادِ عَلَى الْفَقْدِ

فَيَا حُسْنَ دَاكِ السَّيْفِ فِي رَاحَةِ النَّدَى وَيَا بَرْدَ تِلْكَ النَّارِ فِي كَبِدِ الْمَجْدِ

و يسترسل في عرض أفعال ممدوحه ، فيقصّ علينا خبر حصار قرمونة ، و ما قام به ممدوحه في قوله (2):

لَبِغَضٍ فَكَلَّ مِنْهُمْ جَمِيعًا إِلَى فَرْدٍ لَكَ اللَّهُ إِنْ كَانَتْ عُدَاتُكَ بَعْضُهَا

وَأُنْبَهُمْ مِنْهَا بِالْأَسِنَّةِ لُدًّا يَهُودًا وَ كَانَتْ بَرَبْرًا فَانْتَضَى الظُّبَى

لَأَرْضِكَ يَرْتَادُ الْمَنِيَةَ مِنْ بَعْدِ أَقُولُ وَ قَدْ نَادَى ابْنُ إِسْحَاقِ قَوْمَهُ

ظَبَاءً دَنَّتْ مِنْ غَابَةِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ (3) لَقَدْ سَلَكْتَ نَهْجَ السَّبِيلِ إِلَى الرَّدَى

إِلَى الْفَرَسِ الطَّائِي عَنِ الْفَرَسِ النَّهْدِ (4) كَأَنِّي بِبَادِيَسٍ وَ قَدْ حَطَّ رَحْلُهُ

سَرِيعًا غَنِيًّا عَنِ لِحَامٍ وَ عَنِ لَيْدِ إِلَى الْفَرَسِ الْجَارِي بِهِ طَلَّقَ الرَّدَى

كَمَا حَنَّ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ إِلَى الْوَرْدِ يَحِنُّ إِلَى عَرْنَاطَةٍ فَوْقَ مَتْنِهِ

ظَفَرَتْ بِهِمْ فَارْتَحَ وَ أَوْمِضْ كُؤُوسَهَا بَرُوقًا لَهَا مِنْ عُودِهَا ضَجَّةَ الرَّعْدِ

لقد أكثر ابن عمّار في إضفاء صفة الشجاعة و معانيها على ممدوحه نتيجة لكثرة الحروب التي سادت العصر و خاصة عندما تكون للقوة مكانتها و أهميتها في حسم الخلافات السياسيّة ، وكان نصيب آل عباد الكثير من هذه المدايح ، و في مقدمتهم المعتمد بن عباد .

و من ممدوحيه الحكام أيضا ، المعتضد بن عباد ، الذي نال إعجاب ابن عمّار واهتمامه لما كان يتمتع به من رصيد شعبي كبير، و تقدير جليل، فصور شجاعته و بسالته ، و نحو هذا مما تعارف عليه الشعراء في صفات ممدوحهم ، إذ يقول (1) :

(2)- مصطفى الغديري . المصدر نفسه . ص 53-54.

(3)-الورد: من أسماء الأسد ، و قد يكون صفة له للونه.

(4)- النهد : الضخم.

(1)- مصطفى الغديري . شعر محمّد بن عمّار الأندلسي . ص 66-67.

مَنْ لَا تَوَازِنُهُ الْجِبَالُ إِذَا إْحْتَبَى مِنْ لَا تُسَابِقُهُ الرِّيَّاحُ إِذَا جَرَى .
 مَاضٍ وَ صَدْرُ الرُّمَحِ يَكْهَمُ وَ الطُّبَا تَنْبُو وَ أَيْدِي الخَيْلِ تَعْتُرُ فِي البَرَى .
 لَا خَلْقَ أَقْرَأَ مِنْ شِفَارِ حُسَامِهِ إِنْ كُنْتَ شَبِهْتَ المَوَاكِبَ أُسْطَرَا .
 قَادَ الكَتَائِبِ كَالكَوَاكِبِ فَوْقَهُمْ مِنْ لَأْمِهِمْ مِثْلَ السَّحَابِ كَنُحُورَا (2) .
 مِنْ كُلِّ أْبِيضٍ قَدْ تَقَلَّدَ أْبِيضَا عَضْبَا ، وَ أَسْمَرَ قَدْ تَأَبَّطَ أَسْمَرَا .

يركز الشاعر في هذه الأبيات على تصوير شجاعة الممدوح و قوة جيشه و يوافق هذا ما اشتهر به الممدوح – المعتضد بن عباد – من قوة و بأس ، و عظمة جيش ، و يستعين لتأكيد ذلك بأفعال الممدوح مثل دفاع العباديين و على رأسهم المعتضد بن عباد عن إشبيلية أثناء هجوم باديس بن حبوس ، فتغنّى بسيف الممدوح و رمحه ، واصفا قوته و بسالته في قوله (3) :

شَقِيَّتَ بِسَيْفِكَ أُمَّةً لَمْ تَعْتَمِدْ إِلَّا اليَهُودَ ، وَ إِنْ تَسَمَّتْ بَرَبْرَا
 أَثْمَرَتْ رُمَحَكَ مِنْ رُؤُوسِ كَمَاثِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ العُصْنَ يُعْشِقُ مَثْمِرَا
 وَ صَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُلُومِهِمْ لَمَّا عَلِمْتَ الحُسْنَ يُلْبَسَ أَحْمَرَا

و لهذه الشجاعة التي أظهرها الممدوح في تخطي الصعاب ، و محاربة الأعداء رسم الشاعر صورة بطله المغوار الذي أجهز على الأعداء .

و يواصل شاعرنا في وصف قوة الممدوح ، و ما يُخلفه من آثار يقول (1) :

تُعَاطِي الخَوَارِجِ حَتَّى بَرَزَتْ تَقُومُ مِنْ خَدَّهَا مَا صَعْرُ .
 وَ أَقْبَلَتْهَا الخَيْلُ حُمَرَ البُنُو دِ دُهْمَ الفُورِيسِ بِيضَ العَرْرُ .
 فَكَّرُوا فَلَمْ يُغْنِهِمْ مِنْ مَكْرٍ وَ فَرُّوا فَلَمْ يُنْجِهِمْ مِنْ مَفْرٍ .
 وَ دَارَتْ دِمَاؤُهُمْ كَالكُؤُوسِ وَ فَاحَتْ نُفُوسُهُمْ كَالزَّهْرِ .

(2) - من لأمه : و اللأم : مفرد لها اللأمة ، و هي أدوات الحرب من مثل : الدروع و الرماح...
 و السحاب الكنهور : الكثيف المتراكم.

(3) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمار الأندلسي . ص 68-69 .

(1) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمار الأندلسي . ص 82-83 .

فَعَاقَرَ سَيْفَكَ حَتَّى انْحَنَى وَ عَزَبَدَ رُمْحَكَ حَتَّى انْكَسَرَ .

إنه يحدث الخسائر الفادحة في جانب العدو بفضل شجاعته الفائقة .
و هناك قصيدة أخرى ينزل فيها المدح من مرتبته الأعلى درجة ، فمن مدح الملوك والخلفاء ،
ننزل إلى مدح الوزراء و الوجهاء من الناس ، فهذا ابن عمّار يمدح صاحب السهلة (2) ،
أبي مروان عبد الملك بن رزين (3) ، و يشيد بمجده الكبير و مقدرته في الحروب و بسالته
في القتال ، يقول (4) :

تَرُوقُ بِجِيدِ الْمَلِكِ عِقْدًا مَرَصَّعًا وَ تُرْهِى عَلَى عِطْفِيهِ وَشْيًا مُعِينًا
فَدَمٌ هَكَذَا يَا فَارِسَ الدَّسْتِ وَ الوُعَى لَتَطَّعْنَ بِالْأَقْلَامِ فِيهَا وَ بِالْقَتَا

والشاعر في هذين البيتين يتجه إلى وصف شجاعة الممدوح و بسالته و مقدرته على
خوض المعارك، و يتأتى هذا جميعاً كما يبين ابن عمّار من علمه الغزير .
و من معاني الشجاعة ، و وصف سيف ممدوحه، و قيادته الجياد ، و بسالته و نجدته إذا
اشتد غمار المعركة ، ينتقل شعره إلى معاني الكرم .

2-1- الكرم :

برز الكرم في شعر ابن عمّار حتى كاد يطغى على ذكر الصفات الأخلاقية ، و قد
يكون مدعاة ذلك : كونه شاعر بلاطي يتقوت من مدح الحكام.
وظهر الكرم في شعره بمظاهر مختلفة ، سيطر عليها مظهر الماء ، بأشكاله
المتنوعة ، و لقد «طرح العرب للكرم و الكريم من خلال الصور المائية في الأمثال
تصورًا يجعل منه الغوث للجائعين، والعون للمحتاجين ويجعل أرضه أرض غيث ، و ماءه

(2) - السهلة : قرية بالأندلس ، كثيرة الأهل ، واسعة الخطبة ، و ثمرة الأرضين، بها ديار للعجم متقنة البنيان ،
في احداها أربع سوار مجزعة من نفيس الرخام في نهاية العظم و الطول، عليها الناقوس. انظر : محمّد بن عبد
المنعم الحميري .صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من الروض المعطار) تحقيق : ليفي بروفنسال. لجنة التأليف و
الترجمة و النشر. القاهرة 1937.ص279.

(3) -أبي مروان عبد الملك بن رزين : صاحب السهلة امتد حكمه ما بين عامي 436-496هـ، وهو آخر ملوك
بني رزين ، كان مع شرفه و أدبه متعسفًا على الشعراء و متعسرًا بمطلوبهم من ميسور العطاء. انظر : أحمد بن
محمّد المقرئ التلمساني .نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب.ج1:
ص667.

(4) - مصطفى الغديري .شعر محمّد بن عمّار الأندلسي .ص113.

قريب المأتى لمن احتقر ، فإذا اقتربت من دياره ، فلا عز و لا بؤس ، فنعمه ظاهرة على الناس ، وعطاؤه يفوق غيره من الكرام ، ولذا فعلى من يريد الحماية و الري أن يجاور ذلك الرجل «⁽¹⁾ .

و لم يكن استخدامه لرمز الماء للدلالة على الكرام إبداعاً منه ، بل هو تقليد لمن سبقوه ، فالأقدمون يفضلون تشبيه الكرم بالماء⁽²⁾، وهو يرى ممدوحه مطراً أغاث الله به العباد في قوله⁽³⁾ :

أَمْطَرْتَنَا سُحْبَ الْمَكَارِمِ ثَرَّةً أَمْسِكُ فَقَدْ حَوَفَّتْنَا الطُّوفَانَا .

فقد استكمل الممدوح العطاء بمنح المحتاجين ما لم ينالوه ، وكان طوفاناً في كرمه، و الطوفان يقودنا بطبيعة الحال إلى " السحاب " بما يحمله من أمطار ، و هي دليل الخير و النعم « فإذا كان الممدوح غنياً أو ربيعاً أو مطراً ، فإن معنى هذا أنه سوف يكون هناك الماء و الكلاً و البقل و المرعى و الخصب ، و بالتالي فسوف تنتقي من الوجود شبهة الفقر و العقم و الإجداب تماماً»⁽¹⁾ .

و من المطر و السحب إلى البحر ، يقول⁽²⁾ :

بَحْرٌ إِذَا رَكِبَ الْعُدَاةُ سُكُونُهُ وَهَبَ الْغِنَى فِي عِزَّةٍ وَ سُكُونِ .

إلى أن يقول⁽³⁾ :

كَمْ أَسْكَبَ الْعَدْبُ الْفِرَاتَ عَلَى فَمِي وَ رَمَى يَدِي بِاللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ .

فهذا البحر يلمع و يتلألأ ، و تلك هي خصوصيته ، فهو يأسر الناظرين، و البحر رمز الرزق الوفير الذي لا ينضب⁽⁴⁾ ، و ذلك هو حال الحاكم الممدوح ، فهو كريم ، مشهور بهذه الصفة ، و خيره ثمين و قيم، يضاهي في قيمته اللؤلؤ الذي يعتبر ثروة مادية عالية الثمن .

⁽¹⁾ - ثناء أنس الوجود . رمز الماء في الأدب الجاهلي . دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع . القاهرة . مصر . 2000 . ص 80 .

⁽²⁾ - انظر : سامي الدهان . المديح . ص 15-16 .

⁽³⁾ - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمار الأندلسي . ص 111 .

⁽¹⁾ - ثناء أنس الوجود . رمز الماء في الأدب الجاهلي . ص 192 .

⁽²⁾ - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمار الأندلسي . ص 115 .

⁽³⁾ - مصطفى الغديري . المصدر نفسه . ص 115 .

⁽⁴⁾ - ثناء أنس الوجود . رمز الماء في الأدب الجاهلي . ص 193 .

و لم يكتف شاعرنا بتشبيهه بمدوحه بعناصر الطبيعة، و عمد إلى إطلاق الصفة عليه صراحة و إثباتها له، يقول (5) :

و جَهَلْتُ مَعْنَى الْجُودِ حَتَّى زُرْتُهُ فَقَرَأْتُهُ فِي رَاحَتِيهِ مُفَسَّرًا.

و بما أن الممدوح ملتصق به اسم الكريم (الجود) و هذه الصفة هي الاسم الثاني له الذي يعرف به ، فإنه سبب الخيرات التي عمت البلاد و النعيم الذي تمتع به أهلها ، و نال منه شاعرنا حظه ، و لذلك يعترف صراحة بذلك الفضل الذي خصه به الممدوح يقول (6) :

لَقَدْ فَازَ قِدْحِي فِي هَوَاكَ وَ قَابَلْتُ مَطَالِعَ حَالِي فِي سَمَائِكَ أَسْعُدُ.

فَأَتَّقَ حَوْضِي مِنْ نَدَاكَ تَبَجُّسٌ وَ نَمَّقَ رَوْضِي مِنْ رِضَاكَ تَعَهَّدُ.

و لشدة كرم الممدوح وصل درجة الكمال، فلا يوجد من هو أكرم منه ولا مغني للشاعر عنه من باقي الملوك ، أو من الناس الذين يحيطون به، و وصفه بالكامل تملق واضح ، فلا مغني إلا الله سبحانه و تعالى ، لكن شاعرنا يبدو في حاجة ماسة للمال، لذلك نظم هذين البيتين في وصف الكرم ، و يؤكد في موضع آخر على الصفة نفسها ، لكنه في هذه المرة جعل مدوحه كوكبًا مضيئًا ، يقول (1) :

أَعْرُ يُنِيرُ الْمُلْكَ مِنْهُ بِكَوْكِ لَهُ فِي سَمَاءِ الْمُشْكَلاتِ نُقُوبٌ.

فبفضل هذا الكريم المحسن ، تنجلي الصعوبات. و تزول الهموم و الكرب و الأحزان . و عمومًا فإنه يبدو للمطلع على موضوع الحاكم عند شاعرنا ليعتقد أن صفة الكرم طبع في الممدوح ، و ليست تكلفا منه ، لأنه ركز عليها كثيرًا و أخرجها في قوالب كثيرة و متعددة. ولعلّ الشعر في مدحه-عمومًا- يجعل صفة الكرم من طباع الممدوح تسري في دمه، و تتلون بألوان الخير و الرجاء، و يتوجّه بتيجان الجود و السخاء ليكون محط الأنظار و مقصد الحائرين.

1-3- الشرف :

و من صفات الممدوح التي أشاد بها الشاعر ابن عمّار ، و تغنّت بها قصائده : شرف النسب ؛ و المعلوم أن الشرف من القيم التي تتعلق بالقبيلة ، و تقاليدها العامة ، أكثر من

(5) - مصطفى الغديري. شعر محمد بن عمار الأندلسي. ص 67

(6) - مصطفى الغديري. المصدر نفسه. ص 43.

(1) - مصطفى الغديري. شعر محمد بن عمار الأندلسي . ص 27.

تعلقها بالأفراد في المجتمع الجاهلي (2) ، و هنا تَغْنَى الشاعر بها ، كما كان عليه الحال عند الشعراء الجاهليين ، و من جاء بعدهم من الشعراء المحافظين ، فمدح ولي نعمته المعتمد بن عباد ، و أشاد بعظمة أجداده الملوك العباديين ، لأنهم كانوا محل فخر و اعتزاز ، فقال في ذلك (3) :

و مَنْ مِثْلُ عَبَادٍ و مَنْ مِثْلُ قَوْمِهِ نُيُوثُ حُرُوبٍ أَوْ بُدُورُ مَوَاسِمِ .
مُلُوكٌ مُنَاخُ الْعِرْزِ فِي عَرَصَاتِهِمْ و مَثْوَى الْمَعَالِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ .

و للشاعر أيضا في مدح بني عباد و نسبهم العربي الذي يتصل برسول الله صلى الله عليه و سلم قوله في المعتمد (4) :

تَبَوَّأَ مِنْ لَحْمٍ و نَاهِيكَ مَفْعَدًا مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمِ .

وقوله أيضا (1) :

إِنْ كُنْتَ مِنْ لَحْمٍ و سُدَّتِهِمْ فَقَدْ سَادَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَدَنَانَا .
و لَنْ تَمَلَّكَ الزَّمَانُ فَبَتَّمَا أَعْطَيْتَ حَقَّكَ فِيهِ لَا عُدْوَانَا .
أَنْتَ الْقَرِيبُ مِنَ النُّفُوسِ مَحَلَّةٌ هَذَا و إِنَّ عَرَّشْتَ فِي كِيَوَانَا .

فالتغني بنسب الممدوح و شرفه يعزز مكانته عند رعيته ، و يؤكد على أصالة المجد عنه، فهو ملك سليل الملوك .

هكذا كانت صورة الحاكم في شعر ابن عمّار ، فاتسم بالصفات الأخلاقية الحميدة ، كما كان الحال عند ممدوحى الشعراء العرب و كان مدح شاعرنا له محافظاً ، فلم يبدع صوراً جديدة لم يسبق إليها كما أنه أبرز بعض صفاته الخلقية أيضاً ؛ و أفرد بعض القصائد لهذا الغرض ، و ركز على صفتي الكرم و الشجاعة في أغلب مدحه ، ليعزز مكانة الملك الممدوح في وجدان الرعية ، و بخاصة أنه عاش في زمن مليء بالقلقل و الفتن التي وقفت طبيعة الأندلس بسحرها عاجزة عن منع حدوثها و تخفيف وطأتها. لتفسح المجال أمام

(2) - أنظر : أيمن محمد زكي العشماوي . قصيدة المديح عند المتنبي و تطورها الفني . ص 18 .

(3) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمار الأندلسي . ص 104 .

(4) - مصطفى الغديري . المصدر نفسه . ص 105 .

(1) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمّار الأندلسي . ص 110-111 .

المرأة تفتح باباً يُنسى أصحاب القلوب الرقيقة لحظات التعاسة السّياسيّة، و يلج بهم إلى عالم العذاب العشقي المحبب إليهم.

ثانيا : المرأة :

توطئة :

لا تزال المرأة و على مرّ العصور رمزاً لذلك الجمال الذي تهيم به القلوب، و تتلذّد به الأعين ، و تسبح في حُسنِ خُلُقَتِهِ ، كيف لا و لا يكاد يدخل الشّاعر الجاهلي في غرض من قصيدته حتّى يقف على أطلال الحبيب، و يبكي ديارها ، و يتذكّر أيام الوصل ، و يعزّي نفسه بما آل إليه بعد فراقه ، كيف و هي محلّ الأُنس و راحة النفس ، و من ثمة فقد تبعهم على هذا المنهج من جاء بعدهم من شعراء ، و شاعرنا ابن عمّار من أولئك الشّعراء، أحب المرأة كما أحبوها ، و عبر عن تجربته معها ، و عن عاطفته إتجاهها ، و عاش تجربة الغزل الذي يعرفه ابن سيده بقوله : «أن الغزل تحديث الفتيان الجوّاري ، و التغزل تكلف ذلك و النسب التغزل بهن في الشّعور و التشبيب مثله»⁽¹⁾ .

و يستنتج أحمد محمّد الحوفي أن الغزل و النسب و التشبيب كلمات مرادفة كلها تعني إبداء الشّاعر عواطفه لامرأة ما ، أو التّعني بجمالها⁽²⁾ .

أما ابن منظور فيقول : « شبيب المرأة ، قال فيها الغزل و النسب و هو يتشبيب بها أي ينسب بها »⁽³⁾ .

و الغزل من أهم الأغراض الشّعورية في الأدب العربي ، فهو يشغل مكاناً واسعاً فيه ، ولا يخلو شعر شاعر منه، بل إن العرب اتخذوه مطلعاً لقصائدهم، و مفتاحاً لرحلاتهم الشّعورية ، وشكّل المطالع العربية الشهيرة في العصر الجاهلي بخاصة ، بل إن أكبر شعراء الإسلام إذا امتدح الرسول صلى الله عليه و سلم ، ابتداءً بالغزل، و يكفي التمثيل بلامية كعب بن زهير .

و لعل ذاتية الشّعور العربي و فرديته و غنائيته يبرهان على أن هذا الشّعور شعر وجداني عاطفي يغلب عليه التعبير عن النفس و عواطفها الخاصة⁽⁴⁾ .

(1) - ابن سيده . المخصص . مطبعة بولاق . (د.ت.) ج 4 : ص 54-55 .

(2) - أحمد محمّد الحوفي . الغزل في العصر الجاهلي . دار القلم . بيروت . (د.ت.) . ص 10 .

(3) - ابن منظور . لسان العرب . ج 4 : ص 4 .

(4) - شكري فيصل . تطور الغزل بين الجاهلية و الاسلام . دار العلم للملايين . ط 6 . 1983 . ص 27 وما يليها .

و يمكن أن نقول: إنَّ القدماء قد استوعبوا هذه الظاهرة ، و لا أدل من ذلك ابن قتيبة في قولته الشهيرة : « سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار و الدمن و الآثار (...) ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق، و ألم الوجد و الفراق و فرط الصباية ،لئيميل نحوه القلوب ،و يصرف إليه الوجوه و يستدعي به إصغاء الأسماع إليه ،لأن التشبيب قريب لائط بالقلوب ،لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ،و إلف النساء فلا يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، و ضارباً فيه بسهم حلال أو حرام»⁽¹⁾ .

و مهما يكن فإن الغزل أدب وجداني يعبر عن الأحاسيس في مجالات الحب ، لا أدب وصفي يرسم المظاهر الخارجية ، إنه استحضار لماضي سعيد أو شقي ، «ترك في العين دمعة أو في القلب لهفة» (...) فلا غرو أن يتخذ الشعراء من الصلة الطبيعية التي أوجدها الله بين الرجل و المرأة لإقامة بناية الغزل الكبرى «⁽²⁾ .

و قد تطور هذا الغزل تطوراً ملحوظاً عبر الأمكنة و الأزمان و على ألسنة الشعراء ، إلى أن أصبح ظاهرة جمالية توشح الشعر العربي عموماً ، و الصوفي خصوصاً ، « و كثيراً ما كان هذا الغزل أصيلاً في شعرنا العربي يحمل لوعة الإنسان ، و يعلو بنفس قائله «⁽³⁾ .

و هكذا كان الغزل من أجمل ما أبدع العرب من الشعر، و أجادوا فيه ،لما يعبر عن الأحاسيس الوجدانية .في مجالات الحب ،هذا الذي تعددت موضوعاته و مظاهره ، و كثرت مفرداته الدالة على مضامين القلب كالحب ، الهوى ، الغرام و العشق و الوجد⁽⁴⁾ .

و لقد ورد الغزل عند شاعرنا في شكل مقدمات لقصائد مدحية و مقطوعات و نتف مستقلة ،و لم يرد في قصائد كاملة خصت هذا الغرض دون سواه.

(1) - جورج غريب . الغزل تاريخه و أعلامه . عمر بن أبي ربيعة . جميل بن معمر . دار الثقافة . بيروت . لبنان . 1960 . ص 19 .

(2) - جورج غريب . المرجع نفسه . ص 19 .

(3) - جورج غريب . المرجع نفسه . ص 7 .

(4) - جورج غريب . المرجع نفسه . ص 20 .

1- المقدمات الغزلية:

لقد شغل الحديث عن المرأة في الشعر حيزاً كبيراً ،حتى إذا أردنا أن نضع له تقديراً وجدناه يقرب أن يعادل في حجمه و كثرته جميع الأشعار التي قالها شعراء العصر الجاهلي في الموضوعات الأخرى من مدح و هجاء و وصف «و يعني هذا أن المرأة و ما يتصل بها من حديث قد مثلت موضوعاً أساسياً من موضوعات هذا الشعر ، و كان موضوعاً شارك فيه أغلب شعراء هذا العصر» (1).

و قد تنبه نقاد الأدب إلى هذه الحقيقة و إلى أصالة هذا الموضوع في الشعر الجاهلي ، و أهميته في افتتاح القصائد ، كما تنبهوا إلى ما يتصل بالحديث عن المرأة و تصويرها في هذا الشعر من مقدمات ، لأن الحديث عن العاطفة بين الرجل و المرأة قريب إلى النفوس (2) . و على الشاكلة الجاهلية جاءت هذه المقدمات الغزلية في شعر ابن عمّار ، و أنت في مجملها مقدمات طويلة .لقصائد المدح، و هذه المقدمات الغزلية تخدر السامع بتلك العواطف الإنسانية التي يحس بها كل إنسان مرهف الحس ،مما يجعل الشاعر يُوجه عواطفه و يستميل هواه حيث يشاء (3) ، و هذه المقدمات الغزلية تلتزم بما التزم به الأقدمون -في أغلبها -من تصريح البيت الأول ، و بناء القصيدة بناء تقليدياً ، و من ذلك قول ابن عمّار (4) :

أَشَاقَكَ بَرَقَ أَمْ جَفَاكَ حَبِيبٌ	فَلَيْلُكَ فَضْفَاضُ الْوَرْدِ رَحِيبٌ .
أَلَا إِنَّ نَجْمَ الصُّبْحِ فِيهِ مُحَيَّرٌ	تَحَيُّرٌ مَحْبُوبٍ عَلَيْهِ رَقِيبٌ .
وَمَا لِحَمَامِ الْأَيْكِ تَبْكِيكَ كَلَّمَا	تَبَسَّمَ ثَغْرٌ لِلصُّبْحِ شَنِيبٌ .
تُغْنِي فَمَا تَنْفَكُ تَشْرَبُ نُغْبَةً	مِنَ الدَّمْعِ يُهْدِيهَا إِلَيْكَ وَجِيبٌ .

نَعَمْ هَجْرٌ لَيْلِي كَلَّفَ اللَّيْلَ وَصَلْتِي	وَ عَلَّمَ دَمْعَ الْعَيْنِ كَيْفَ يَصُوبُ .
فَتَاةٌ غَاذَاهَا الْحُسْنُ حَتَّى كَانَهَا	هِيَ الْحُسْنُ أَوْ الْفَتْحُ إِلَيْهِ حَبِيبُ .

(1) - بهي الدين زيان. الشعر الجاهلي تطوره و خصائصه الفنية. دار المعارف. القاهرة. 1988. ص96.

(2) - بهي الدين زيان. المرجع نفسه. ص96.

(3) - عبد العزيز الكفراوي. الشعر العربي بين الجمود و التطور. دار المعارف للطباعة و النشر. مصر. (د.ت) ص30. و امحمد بن لخضر فورار. الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية دراسة موضوعية و فنية. دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع. الجزائر. 2009. ص 102-103 .

(4) - مصطفى الغديري. شعر محمد بن عمّار الأندلسي. ص 24-25.

فَعَيْنٌ كَمَا عَنَّ الْمَهَا وَ مُقَلَّدٌ
 وَ رَدْفٌ كَمَا أَنهَالِ الْكَثِيبُ وَ ضَمَّةً
 وَ تُعْزِرُ كُنُورِ الْأَفْحْوَانِ يَشُوبُهُ
 شَقَقْتُ جُيُوبَ الصَّبْرِ عَنْهُ بِطَفَلَةٍ
 فَفَاتِكَةُ الْأَلْحَاطِ وَ هِيَ عَلِيلَةٌ
 إِذَا أَقْبَلْتُ تَحْتَالُ قُلْتُ، وَ لَمْ أَصَبْ
 وَ إِنْ نَظَرْتُ نَحْوِي أُصِيبُ وَ لَمْ أَكُدْ
 كَسَا الْخَجَلُ الْمُعْتَادُ صَفْحَةً خَذَهَا
 وَ دَبَّتْ مِنَ الْأَصْدَاغِ فِيهِ عَقَارِبٌ
 أَمَا وَ نَسِيمِ الرُّوضِ زَارَ نَسِيمَهَا
 لَقَدْ حَسَنْتُ حَتَّى كَأَنَّ مَحَاسِنًا
 كَمْ إِرْتَاعَ ظَنِّي بِالْفَلَاةِ رَبِيبٌ .
 وَشَاحٌ ، كَمَا غَنَى الْحَمَامُ طَرُوبٌ .
 لَمَى : حَسَنَاتُ الصَّبْرِ عَنْهُ دُنُوبٌ .
 تَزُرُّ عَلَيْهَا لِلْجَمَالِ جُيُوبٌ .
 وَ نَاعِمَةٌ الْأَعْطَافَ وَ هِيَ قَضِيبٌ .
 هِلَالٌ وَ عُصْنٌ نَاعِمٌ وَ كَثِيبٌ .
 بِأَنْ قُلْتُ : سَهْمٌ لِلْقُلُوبِ مُصِيبٌ .
 رِدَاءٌ طِرَازَاهُ : نَدَى وَ لَهِيْبٌ .
 لَهَا فِي فُؤَادِ الْمُسْتَهَامِ دَبِيبٌ .
 فَأَهْدَتْهُمَا نَحْوَ الْمَشُوقِ جَنُوبٌ .
 تَقَسَّمَهَا هَذَا الْأَنَامُ ، عُيُوبٌ ! .

وهذه الأبيات المشكلة للغزل جاءت كمقدمة و مطلع لقصيدة مدحية ، حيث يقف فيها الشاعر عند مقومات الجسد الذي يشكل النموذج الساحر الذي يرسم الصورة الأجل ، التي تنطق سحرًا و جمالاً ، فوقف الشاعر عند تفاصيل هذا الجسد المثير ، من وجه و خد و عين و خصر و ثغر ، دون أن يهجر سنة الأوائل في طريقة التغزل بالمرأة ، فجاءت أبياته على شاكلة ما قاله امرؤ القيس و الأعشى و غيرهما ، ممن تفننوا في التغزل بالمرأة .
 و لم يغفل الشاعر ذكر أشواقه التي تنتطير في بحر هواها ، و أنه لم يعد قادرًا على البعاد ، و إخفاء حبه و يشكي من بعدها فيضيف⁽¹⁾ :

فِيَا رَبِيَّةَ الْقَرْطِ اللَّعُوبِ تَرَفَّقِي
 فَحَسْبُكَ فَاَلْحَلْمُ الرَّسُوبُ لِعُوبِ
 وَأَطَاعِكَ قَلْبِي لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ
 إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنْ مَالِكَ فِي دَمِي
 وَ لَا نَيْلَ إِلَّا زَفْرَةٌ وَ نَحِيبٌ .
 وَ شَرِيكَ ، وَ مَالِي فِي هَوَاكَ نَصِيبٌ .
 وَ قُلْتُ : فَتَى لَا يَسْتَقِيدُ عَرِيبٌ .
 وَ أَتَدْرِينَ مَنْ كَلَّفَتْ عَيْنِيكَ قَتْلَهُ

(1) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمار الأندلسي . ص 26 .

و بالطريقة نفسها و الفكرة ذاتها يتناول الشاعر قصيدة أخرى في المدح ، يقف فيها – الشاعر- لبيان لوعة المحب و ألم فراقه و يقف مصوراً حالة الاستيلا ب و الضعف اللذين شعر بهما يوم فراق الحبيبة مشيراً إلى شدة الوجد و الاشتياق للمحبوب و عدم القدرة على بعده من فرط الصبا بة و الهيام به ، إذ يقول (1):

جاءَ الهوى ، فاستشعروه ، عاره	و نعيمه ، فاستعذبه أو اره!
لا تطلبوا في الحب عزا إنما	عبدانه في حكمه أحراره.
قالوا : أضر بك الهوى فأجبتهم	يا حبذا و حبذا إضراره.
قلبي هو اختار السقام لجسمه	زيًا ، فخلوه وما يختاره.
غير ثموني بالنحول و إنما	شرف المهدي أن ترق شفاره.
و شمتتم فراق من أفته	و لرئما حجب الهلال سراره.
أحسبتم السلوان هب نسيمة	أو أن ذاك النوم عاد غراره.
إن كان أعب القلب من حرب الجوى	خدلته من دمعي إن أنصاره.

و يمكننا أن نشير إلى: إن الشاعر قدم لقصائده المدحية بمقدمات غزلية يمكن عدّها مذهباً من مذاهب الشاعر في بنائه الشعري ؛ فقد أتى بها مقلداً أو وفاء للقيم الأدبية الموروثة ، و لم يقصد منها التعبير عن عاطفته و شعوره لأنها أصلاً مقدمات لغرض المدح، أين لا نستطيع التحقق من صدق عاطفته إتجاه هذا المحبوب .

2- مقدمات خمريّة :

جاءت بعض مقدمات القصائد في موضوع وصف الخمرة و الحديث عنها على طريقة المجددين أمثال أبي نواس الذي يدعو: « دعوة واسعة إلى العدول من وصف الأطلال إلى وصف الخمرة » (1).

(1) - مصطفى الغديري. شعر محمد بن عمار الأندلسي. ص 61-62.
(1) - شوقي ضيف. الخمريات في العصر العباسي الأول. دار المعارف. مصر. طبعة 5. (د.ت). ص 234.

و الخمرة تحفل بأعمق التجارب الإنسانية، إلا أن الشعراء جعلوا يصفون شعاعها و طبيها و كأسها، و ما إلى ذلك مترفعين بأوصافها و معانيها، فألموا بها كما ألموا بالمرأة؛ و جاء في مطلع قصيدة ابن عمّار في مدح المعتضد بن عبّاد⁽²⁾ :

أدر الزُّجاجةَ فالتَّسِيمُ قَدِ انْبَرَى و النَّجْمُ قَدِ صَرَفَ العَنَانَ عَنِ السُّرَى .
و الصُّبْحُ قَدِ أَهْدَى لَنَا كَافورَهُ لَمَّا اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مِنَّا العُنْبَرَا .

ففي هذا المطلع يتحدث الشّاعر عن الخمرة، كونها مظهرًا من مظاهر الرجولة و سمو القدر، لِمَا تحدّثه في النفس من انصراف لذيق عن الواقع، يعطي بعدًا نفسيًا يسرح معه خيال الشّاعر، و يهيم به في القيان و المغنيات .

و لَمَّا كان الإنسان يحتاج دائمًا لتغذية حاجاته الفطرية التي تتفق مع مجتمعه، و يتجه بكل قدراته لتحقيق رغباته من خلال ما يُسمى (الحب) فقد ورد الغزل عند ابن عمّار أيضًا في مقطوعات و نتف مستقلة دون القصائد، و قد يعود ذلك إلى «إن كثيرًا من الشّعر الذي كان يغنى فيه كان شعرًا غزليًا، معنى ذلك أنه على الشّاعر الذي يعد أبياته لهذه الغاية أن يراعى فيها مقتضيات الغناء، أي أنه عليه أن يترك التطويل ويعتمد الاجتزاء بعدد مناسب من الأبيات ليكون الشّعر صالحًا للإعادة و التكرير اللذين تقتضيهما طبيعة الغناء»⁽³⁾.

و قد انقسم الغزل عنده إلى نوعين: الغزل المادي (الحسي) الذي أوجده ظروف و عوامل، و لعل أهمها متمثل في جو المسرات، المساعد على التهالك على الملذات في ليال حمراء وسط مجالس خمرية صاخبة بالرقص و الغناء، و الغزل الماجن أو ما يسمى الغزل بالمذكر أو الغزل الشاذ⁽¹⁾ الذي جرى ذكره على ألسنة أدباء و شعراء باختلاف طبقاتهم و منازلهم الثقافية و العلميّة، و لقي استهجانًا لدى فئة منهم، بينما عده آخرون تقليدًا أدبيًا أكثر منه سلوك خفيا .

3- الغزل المادي (الحسي) :

(2)- مصطفى الغديري. شعر محمّد بن عمّار الأندلسي. ص 65.
(3)- عبد القادر هني. مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة. دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع. (د.ت). ص 69.
(1)- انظر: عبد القادر هني. مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة. ص 54. وما بعدها .

ينصرف اهتمام الشعراء في هذا اللون من الغزل إلى الحديث عن مفاتن المرأة : من عيونها و شعرها ، و خديها و لماها، و جيدها ، و صدرها ، و قامتها ، و ابتسامتها ، و حديثها ، و عطرها ، و ما إلى ذلك من الأوصاف التقليدية التي ألفها العربي في وصفه للمرأة ، أو التعبير عن العواطف تعبيرًا ينطوي على رغبة صريحة .

إذن، فهو الغزل الذي لا يحفل بالجادبية الروحية التي يحسونها في المرأة بقدر ما يحفلون بأوصافها الجسدية، و ذوقهم في الجمال قائم على أن هذا الجسم للاستمتاع ، فقد برعوا في الوصف الجسدي براعة تناولت كل عضو من أعضاء المرأة ، و كان مذهب هؤلاء الشعراء قائمًا على حب النوع ممثلًا في كل امرأة، فهو الجنس لا الشخص ، و هم بذلك لا يُعيُّون أنفسهم بتوحيد الحبيبة و الوفاء لها، و احتمال الآلام في حبها (2) .

و هذا اللون من الشعر في وصف المرأة و أعضائها و التشبيب بها له دوافع إنسانية غريزية ، لذلك يقول يوسف حسين بكار « إنه السائد حتى لا يكاد يفلت عضو من أعضائها دون أن يأخذ نصيبه من الوصف أو الذكر أو التشبيب (...) بدوافع حسية شهوانية ماجنة تعشق جسد المرأة لا روحها و تقصد إلى التمتع بها لا إلى الإبقاء عليها» (3) .

و قد استلهم ابن عمّار من جمال المرأة و رقتها ما جعله ينظم شعراً ينافس المشاركة ، و انعكست صورتها في أشعاره ، و وصفها بصفات مادية حيث يقول (4) :

نَفْسِي ، و إِنَّ عَدْبَيْتَهَا ، تَهْوَاكِ و يَهْرُهَا طَرَبٌ إِلَى لُقْيَاكِ .
عَجَبًا لِهَذَا الْوَصْلِ أَصْبَحَ بَيْنَنَا مُتَعَدِّرًا و مُنَايَ فِيهِ مُنَاكِ .
مَا بَالُ قَلْبِي حِينَ رَامَكَ لَمْ يَنْلُ وَ لَقَدْ تَرُومُكَ مُقْلَتِي فَتَرَاكِ .
اللَّهُ أَعْلَمُ مَا أُرُورُ لِحَاجَةٍ ذَاكَ الْمَحَلَّ لِغَيْرِ أَنْ أَلْقَاكِ .

و الشاعر في مستهل هذه القصيدة نجده لفرط الصباية يشكو عذاب النفس ، بسبب صدّ حبيبته ، و هجرها له ، فهيجت في نفسه من شدة الحب الكثير من الهموم و الأحزان ، ثم ينتقل في القصيدة ذاتها إلى تمني لقاء الحبيب من جديد و بعث أوامر الوصال الذي تتوق

(2) - يوسف حسين بكار . اتجاهات الغزل في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . دار المعارف .

مصر . 1971 . ص 124 .

(3) - يوسف حسين بكار . المرجع نفسه . ص 124 .

(4) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمّار الأندلسي . ص 84-85 .

إليه نفسه - بعيداً عن عيون الوشاة و الغيارى - منتزهاً في روض خدها ، مستمتعاً لحكي
العصون لجمال قدها ، شارباً لِمَا يسقى من شفاهها العذبة (1) :

لَيْتَ الرَّقِيبِ ، إِذَا التَّقِينَا ، لَمْ يَكُنْ فَأَنَالَ رِيًّا مِنْ لَذِيذِ لِمَاكَ .
مُتَنَزِّهَا فِي رَوْضِ خَدِّكَ شَارِبًا كَأَسِ الْفُتُورِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكَ .
حَكَتِ الْعُصُونُ جَمَالَ قَدِّكَ فَانْتَبَتْ وَ الْفَضْلُ لِلْمَحْكِيِّ لَا لِلْحَاكِيِّ .
لَا تَعْزُبِي يَا رَوْضَةَ مَمْطُورَةٍ حَتَّى أُمَّدَّ يَدِي إِلَى مَجْنَاكَ .

و من الخدود إلى العيون ذات السحر الأخاذ التي تأسر الشاعر فتجعله يهيم من أجلها
حباً(2) ، فيصفها متغزلاً بقوة تأثيرها فيه (3) :

فَفَاتِكَةُ الْأَحَاظِ وَهِيَ عَلِيَّةٌ وَ نَاعِمَةٌ الْأَعْطَافِ وَ هِيَ قَضِيبٌ .
إلى أن يقول (4) :

وَ إِنْ نَظَرْتُ نَحْوِي أُصِيبْتُ وَ لَمْ أَكْذُ بِأَنْ قُلْتُ : سَهْمٌ لِلْقُلُوبِ مُصِيبٌ .
و يضيف إليها جمال الخد في قوله (5) :

كَمَا الْخَجَلُ الْمُعْتَادُ صَفْحَةً خَدَّهَا رِدَاءً طِرَازَاهُ نَدَىٌّ وَ لَهَيْبٌ .
وَ دَبَّتْ مِنَ الْأَصْدَاغِ فِيهِ عَقَارِبٌ لَهَا فِي فُؤَادِ الْمُسْتَهَامِ دَبِيبٌ .

وجاءت هذه الأبيات في قالب طريف تبرز حسن الصياغة و جمال السبك ، مما
أضفى على المعنى رونقا و جمالاً ، فقد طعم الخجل حسن الخد ، وبلغت صاحبته الجميلة
الكمال في الحسن .

و لم يغفل شاعرنا عن وصف الفم الذي شبهه بنور الأَقْحَوَانِ ، وقال (1) :

وَ تَعْرُّ كَنُورِ الْأَقْحَوَانِ يَشُوبُهُ لَمَّى حَسَنَاتُ الصَّبْرِ عَنْهُ ذُنُوبٌ .
شَقَقْتُ جُيُوبَ الصَّبْرِ عَنْهُ لِطَفَلَةٍ تَزُرُّ عَلَيْهَا لِلْجَمَالِ جُيُوبٌ .

فالرائحة العطر تفوح عبقاً كأنها أقحوان يانع.

(1) - مصطفى الغديري. شعر محمد بن عمّار الأندلسي. ص 85 .

(2) - عبد القادر هني . مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة . ص 69.

(3) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمّار الأندلسي . ص 25.

(4) - مصطفى الغديري. المصدر نفسه . ص 25.

(5) - مصطفى الغديري . المصدر نفسه . ص 25.

(1) - مصطفى الغديري. شعر محمد بن عمّار الأندلسي. ص 25 .

و يبحر من الرأس إلى الوسط، و يخص بالوصف الخصر و الأرداف و البطن حيث قال (2).

و رَدَفَ كَمَا إِنهَالِ الكَثِيبُ و ضَمَّهُ و شَاخَ كَمَا عَنَى الحَمَامَ طُرُوبُ.
إِذَا أَقْبَلْتُ تَخْتَالُ قُلْتُ و لَمْ أُصَبْ هَلَالٌ و عُصْنٌ نَاعِمٌ و كَثِيبٌ.

و تشبيه الردف بالكثيب، صورة تقليدية، تغنى بها الشعراء الجاهليون كثيرًا (3). و الملاحظ في هذه الأبيات: إن شاعرنا لم يفصل في وصف جسم الموصوفة، و على الرغم من أن وصفه كان حسيًا إلا أنه لم يفحش في وصفها كما كان بعض الشعراء الجاهليين يُمعنون في الأفحاش، و بخاصة إذا كانت الموصوفة من الجواري (4).

وبعامة فإن هذه الصفات الجسدية التي تنطوي عليها المرأة المتغزل بها في أبيات ابن عمّار: من قد رشيق، و عيون ساحرة، و خدّ جميل، و ثغر عطر، لا تخرج عن كونها سنة الأقدمين في التعبير عن الجمال الأنثوي، على الرغم من أنه لم يذكر جميع الصفات التي تغنوا بها، كالشعر و المشية، و السيرة (5).

و الجاهليون من أمثال امرؤ القيس، و الأعشى، و غيرها جرت معانيهم الغزلية على نفس المعاني، و أغرموا منها بالصفات نفسها، و يبقى الذوق العربي في فهم الجمال هو نفسه من الجاهلية إلى العصر الأندلسي و إن تطور في بعض جزئياته إلا أنه واحد في كليته.

4- الغزل الماجن (الغزل بالمذكر، الغزل الشاذ):

عرفت إشبيلية هذا اللون من الغزل الشاذ، و قال فيه كثير من شعرائها على مختلف طبقاتهم الاجتماعية و مكانتهم الثقافية و العلمية كابن الأبار، و المعتمد بن عباد، و ابن عمّار، و ابن وهبون و القائمة تطول، إذ لم يكن التغزل بالمذكر «أمرًا معيبيًا أو غير مرغوب فيه لا سيما في الوسط الأرستقراطي، حيث شارك الشعراء و الوجهاء في مثل هذا النوع من

(2) - مصطفى الغديري. المصدر نفسه . ص 25 .

(3) - أحمد محمد النجار. أساليب الصناعة في الشعر الجاهلي. الصدر لخدمات الطباعة. مصر. طبعة 1. 1966. ص 237.

(4) - انظر: عبد القادر هني. مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة. ص. 70

(5) - محمد زغلول سلام. مدخل إلى الشعر الجاهلي. دراسة في البيئة و الشعر منشأة المعارف. مصر. 1995. ص 175-176.

الشعر»⁽¹⁾، و كانت البواعث التي هيأت لظهوره في الأندلس هي نفسها البواعث التي ساعدت على ظهوره في المشرق ، و لعلّ من أهمها انتشار مجالس اللهو و المجون و الخمر التي تديرها الجوارى كما يرهاها السقاة من الغلمان الذين يتيحون أكبر قدر من اللذة ، و وسائل المتعة للشعراء الحسينيين ، إضافة إلى حظ هؤلاء الغلمان من الجمال الخلقى ، الذي يستطيعون به أن يحركوا ذوي القلوب الضعيفة ، و النفوس الشهوانية لتعبر عن إعجابهم و ترتمي تحت أقدامهم تشكو لواعج الصّد و عذابات الهجر ، و يتغزل به يقول ⁽²⁾:

وَ أَحْوَرَ مِنْ طِبَاءِ الرُّومِ عَاطِـٍ
بِسَالِفَتَيْهِ مِنْ دَمْعِي فَرِيدُ ⁽³⁾ .
نَبِيلُ الْخَلْقِ جَافِي الْخُلُقِ عَبْدُ
هُوَ الْمَوْلَى وَ نَحْنُ لَهُ عَبِيدُ .
بَكَيْتُ ، وَ قَدْ دَنَا وَ نَأَى رِضَاهُ
وَ قَدْ يَبْكِي مِنْ الطَّرْبِ الْجَلِيدِ .
قَسَا قَلْبًا وَسَنَّ عَلَيْهِ دِرْعًا
فَبَاطِنُهُ وَ ظَاهِرُهُ حَدِيدُ .
وَ إِنْ فَتَنَّتْ تَمَلَّكَهُ يَنْقِدُ
وَ أُحْرَزَ رِقَّةً لَفَتَى سَعِيدُ .

لقد احتل هذا الغلام المكانة التي من المفروض أن تحتلها المرأة في قلب الشاعر فحباه عاطفته التي توجه عادة إلى المرأة أو وجه له حديثا من المفروض أن يوجهه إليها ؛ فيصف ما بقلبه من حرق الجوى و ما يذرفه من عبارات .
فتغزل ابن عمّار — كما في الغزل الأنتوي — بجمال الجفون و عنوبة اللّمي ، و وصف العارض ، و في ذلك يقول ⁽¹⁾:

نَادَمْتُهَا وَ الرَّاحُ يَلْهَبُ كَأْسَهَا
عَدْبُ اللَّمَى سَاجِـِي الْجُفُونِ غُلَامُ .
وَ تَشَاكَلَا حُسْنًا فَعَانَقَ قَدَّهُ
أَلْفٌ وَ عَارِـٍ عَارِضِيهِ لَامُ .

و قد يتحدث الشاعر في غزله الغلmani عن العذار ، فيصفه و يولع به ، فمن ذلك قوله يتغزل في غلامين من بني جهور ، أحدهما عذاره أشقر و الآخر عذاره أخضر فكان يميل بحديثه من ظهر دابته إلى الذي وصف منهما ⁽²⁾ :

(1) - صلاح خالص . اشبيلية في القرن الخامس الهجري . ص 102 .
(2) - مصطفى الغديري . شعر محمّد بن عمّار الاندلسي . ص 44 .
(3) - عا: من فعل عطا يعطو الطبي ، إذا تطاول بعنقه إلى الشجر ليتناول منه . انظر : ابن منظور . لسان العرب . (مادة: عطا) .
(1) - مصطفى الغديري . شعر محمّد بن عمّار الاندلسي . ص 96 .
(2) - مصطفى الغديري . المصدر نفسه . ص 125 .

تَعَلَّقَتْهُ جَهْورِي النَّجَا رَحُلُو اللَّمَى جَوْهَرِي الثَّنَايا .
 مِنْ الْفَرِ الْبَيْضِ جَرُّو الزَّمَانَ رِقَاقِ الْحَوَاشِي كِرَامِ السَّجَايا .
 وَلَا عَرُّو أَنْ تَعْرَبَ الشَّارِقَاتُ وَ تَبْقَى مُحَاسِنُهَا بِالْعِشَايا .
 وَ لَا وَصَلَ إِلَّا جَمَانُ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ مِنْ ظُهُورِ الْمُطَايا .
 شَنِتُّ الْمُثَلَّثَ لِلزَّعْفَرَانِ وَ مَلَّتْ إِلَى خُضْرَةٍ فِي الثَّقَايا (3) .

كما كان لخفة حركة هؤلاء الغلمان السقاة ، و رشاقة قوامهم ، و سحر جمالهم علوق لدى ابن عمّار ، و ما ذلك إلا دليل على تخيرهم للقيام بهذه المهمة التي تضمن المتعة في المجالس ، و هم في كل ذلك رهن الإشارة للندامى . الذين يمزجون بين مفاتن الغلام و غنجه، و بين أوصاف الخمر و مدى تأثيرها ، مستعنيين في ذلك بأوصاف المرأة ، و مفاتن الطبيعة التي ينعمون بها (4) :

وَ هَوَيْتُهُ يَسْقِي الْمُدَامَ كَأَنَّهُ قَمَرٌ يَدُورُ بِكُوكَبٍ فِي مَجْلِسِ .
 مُتَارِجُ الْحَرَكَاتِ تَنْدَى رِيحُهُ كَالْعُصْنِ هَزَّتُهُ الصَّبَا يَتَنَفَسِ .
 يَسْقِي بِكَأْسٍ فِي أَنْامِلِ سَوْسِنٍ وَ يُدِيرُ أُخْرَى مِنْ مَحَاجِرِ نَرْجِسِ .
 عَنَّا بِكَأْسِكَ قَدْ كَفَنَّا مُقَلَّةً حُورَاءُ قَائِمَةً بِسُكْرِ الْمَجْلِسِ .
 يَا حَامِلَ السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادَهُ وَ مُصْرَفَ الْفَرَسِ الْقَصِيرِ الْمُخْبَسِ .
 إِيَّاكَ إِيَّاكَ الْوَعَى مِنْ فَارِسِ حَشِينَ الْقِنَاعِ عَلَى عِدَارِ أَمْلَسِ .
 جَهْمٍ وَإِنْ حَسَرَ اللَّثَامَ فَإِنَّمَا رَفَعَ الظَّلَامَ عَنِ النَّهَارِ الْمُشْسِ .
 يَطْعَى وَ يَلْعَبُ فِي دِلَالِ عِدَارِهِ كَالْمُهْرِ يَمْرُحُ فِي اللَّجَامِ الْمُجْرَسِ .
 سَلَّمَ فَقَدْ قَصَفَ الْفَتَا عُصْنَ النَّقَا وَ سَطَّ بَلِيثِ النَّغَابِ ظَبْيُ الْمِكْنَسِ .

و جملة القول: إن شعر ابن عمّار في غرض الغزل جاء في لونين اثنين: أول مادي حسي ، يحفل بالجسد و ما حوى ، و يسوقه في ذلك شهوته التي لم يكبح جماحها ، فعذب نفسه و تعذب ، و ثانٍ ماجن شاذ ، لكنه في غير فحش و لا إسفاف كبيرين أين علق قلبه

(3) - المثلث: عند الاندلسيين أنواع من الأطعمة ، منها المجبنة المثلثة ، المثلث من روؤس الخس ، و ألوان هذه الأطعمة تضرب إلى الصفرة ، لأن الزعفران يدخل في تركيبها . أما الثَّقَايا : من بسائط الأطعمة تحضر من لحم الضأن الفتى ، و يكثر فيها الكزبرة الرطبة ، و يجعل فيها بندق و لوز مقشر مقسوم . انظر: الطبخ الاندلسي لمجهول . مكتبة صيد الفوائد . موقع : www.Saaid.net/book.2007-08-26
 (4) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمّار الاندلسي . ص 123-124 .

بغلمان هم كالشموس حسناً، مأخوذاً بسحر جفونهم و خفة حركاتهم في مجالس لهو و مجون

و كان بذلك الغزل في ديوانه أقرب ما يكون إلى التقليد، الذي قيل بحكم الاستجابة النفسية التي كانوا يحسونها، أو التناغم العاطفي الذي كانوا يجيدونه⁽¹⁾، و قد سار فيه ابن عمّار على خطى سابقيه من الجاهليين، لأنه اعتبره النموذج المشرقي عامة و الجاهلي خاصة، النموذج الأمثل الذي يحتذي به و ينسج على منواله .

(1) - شكري فيصل. تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام. ص 279.

ثالثاً : البيئة الطبيعيّة و الإنسانيّة :

توطئة:

تنعم البيئة الأندلسية بجمال ثر و روعة أسرة ، و تصطبغ بظلال و أرفة و ألوان ساحرة ، و تتنفس بجو عبق عطر يضاعف من روعته و بهائه ما يتخلل جنباتها من مواطن السحر و مظاهر الفتنة التي تبعث الانبهار و الدهشة في النفوس (1) .

و قد انعكس ذلك في شعر الأندلسيين بشكل عام ، حيث ازدحم بصور متنوعة ملونة تمثل البيئة الطبيعية في هذه الرقعة المسماة إشبيلية و تأثيرها الكبير على حياة الشعراء و نتاجهم ، و ابن عمّار واحد من أولئك الشعراء الذين تأثروا بالبيئة ، إذ برز تأثره بها في شعره ، من خلال أغراضه الشعريّة المختلفة التي عبرت عن حقيقة علاقته بالطبيعة و بالمجتمع .

1- علاقته مع الطبيعة :

احتل وصف الطبيعة مكاناً واسعاً في شعر ابن عمّار ، فالطبيعة الأندلسية التي عاش فيها كان لها دور كبير في التأثير فيه ، إذ وجد فيها (الحقائق و البساتين) مرتعاً لأفكاره و منبعاً لأحاسيسه و مشاعره ، و خلقت في نفسه حبا للطبيعة، و دعت إلى طلب اللذة في أحضانها ، فتكونت بينهما- الشاعر و الطبيعة- علاقة وطيدة ؛ و شعره في غرض الوصف خير مثال يوضح حقيقة هذه العلاقة لأن الوصف «محاكاة الشيء و تمثيله بذكر نعوته» (2) ، و أحسنه «ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع» (3) .

و قد انعكست فتنة ابن عمّار بالطبيعة فيما نظمه من شعر، و كانت الطبيعة هي الملهم الأكبر له ، حتى صارت المنطلق لكثير من فنونه.

فعندما عرض النقاد لهذا الشعر قسموه إلى أبواب: المدح، الفخر، الهجاء، الرثاء، النسب و الوصف ، و رأوا أن الوصف يغلب عليها جميعاً و يشملها بردائه ، إذ يقول ابن رشيق : «أن الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف» (4) .

(1) - محمّد مجيد السعيد . الشعر في ظل بني عباد . ص 101 .

(2) - علي بوملحم . في الأدب و فنونه . المطبعة العصرية للطباعة و النشر . بيروت . لبنان . 1970 . ص 66 .

(3) - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده . ج 2 : ص 278 .

(4) - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني . المصدر نفسه . ج 2 : ص 278 .

فابن عمّار إذا تغزل جعل الطبيعة إطاراً لغزله ، و إذا مدح أخذت صورها تنبث في أبياته ، و إذا وصف الراح لجأ إليها و أفاض في وصف محاسنها و إذا حن إلى بلاد تذكر طبيعتها الجميلة⁽¹⁾ .

و بهذا فالوصف هو الكشف و الإظهار ، و هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال و الهيئات⁽²⁾ ، فالوصف يرسم أحوال الطبيعة الصامتة و المتحركة و يبين هيئتها ، و مجمل القصائد الوصفية في ديوان ابن عمّار لا تخرج عن المعهود من المواضيع التي جرى فيها الوصف عند الشعراء السابقين المشاركة و الأندلسيين على السواء ، كما أنها لا تختص بنوع واحد من أنواع الوصف بل تعددت المواضيع التي وصفها ابن عمّار ، فلم يكتف بوصف المدينة مثلا ، أو طبيعتها فحسب بل وجدنا عدة نماذج لأوصاف يمكن تصنيفها كالاتي :

1—1 وصف الطبيعة الصامتة :

و فيها يتجه الشعراء إلى وصف المظاهر الطبيعية و ما تثيره من سحر بجمالها الأخاذ و روعتها الخلابة ، يجسدونها في لوحة إبداعية فنية تتم عن إعجابهم بتلك الطبيعة التي تحتضنهم ، فالأندلس عامة و إشبيلية بصورة خاصة بزهرها و ثمارها و خضرتها و شمسها و قمرها و صباحها ، مدينة جميلة خلابة ، تأسر الألباب بزرقه بحرها فليلها أجمل من نهارها ، و قمرها أبهى من شمسها ، وهذه المظاهر و غيرها بروعتها حركت مشاعر ابن عمّار ، الذي هام شوقا إلى التعبير عما خلفه فيه هذا السحر الذي أبدعه خالق الكون .
ومما يجعلنا نعتقد أن ابن عمّار مولع بوصف الطبيعة الصامتة وصفه القلم في قوله⁽³⁾ :

نَحْنُ خَلِيلَانِ مَا دَعَانَا لِلْوَصْلِ وَدُّوْا لَا اخْتِيَارُ .
نُفْصِلُ مَا كَانَ ذَا اتِّصَالٍ كَأَنَّنا اللَّيْلَ وَ النَّهَارُ .

هو ينقل إلينا مشهداً حياً من الصداقة التي قامت بينه و بين القلم ، حيث يحب بعضها بعضاً و يبادلها الودّ و الإحساس ، و في تفصيله للإتصال . قام بإسقاطها – العلاقة- على

(1) - فوزي عيسى . الشعر الأندلسي في عصر الموحدين . دار الوفاء لندنيا الطباعة و النشر . الإسكندرية . طبعة 1 . 2007 . ص 128 .

(2) - انظر : أبو الفرج قدامة بن جعفر . نقد الشعر . تحقيق و تعليق : عبد المنعم خفاجي . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . (د.ت) . ص 4 .

(3) - مصطفى الغديري . شعر محمّد بن عمّار الأندلسي . ص 60 .

الطبيعة ، وحمل إلينا بذلك صورة تفيض بالحياة بما أودع فيها من قوة التجسيد و براعة التشخيص .

كما وصف زورقًا ، و تمثله مضيئًا على ضفتي نهر، يقول (1) :

و جَارِيَةٍ مِثْلَ الْهَلَالِ أَلْفَتْهَا عَلَى نَهْرٍ مِثْلَ السَّمَاءِ رَقِيقٍ
تَجَلَّى لَنَا الْإِصْبَاحُ وَ هُوَ زُمْرَدٌ فَأَلَقْتُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُوبَ عَقِيقٍ.

يصور الزورق و هو يجري على صفحة النهر كأنه هلال تنمق في سماء ، و يصوره و قد ألقته عليه الشمس أشعتها فبدا كثوب عقيق .

و في لوحة أخرى من لوحات ابن عمّار يصور يومًا غائمًا ويتخيله دخانًا تكاثف في السماء جراء احتراق غصون خضراء ، فيقول (2) :

يَوْمٌ تَكَثَّفَ غَيْمُهُ فَكَانَ هَهُ دُونَ السَّمَاءِ دُخَانٌ عَوْدٍ أَخْضَرَ.

و يمضي في رسم لوحته فيتخيل الأرض (التربة) و قد نشرت عليها برودة من فضة فوق بساط من عنبر ، و يضيف إلى هذه الجزئية جزئيات أخرى تتزين بها لوحته، فيصف الشمس و هي تلوح كأنها أمة تعرض نفسها للمشتري، في قوله (3) :

وَ الطَّلُّ مِثْلُ بَرَادَةٍ مِنْ فِضَّةٍ مَنْثُورَةٌ فِي تُرْبَةٍ مِنْ عَنَبَرٍ.
وَ الشَّمْسُ أَحْيَانًا تَلُوحُ كَأَنَّهَا أُمَّةٌ تُعْرَضُ نَفْسَهَا لِلْمُشْتَرِي.

و دائما فيما يتعلق بوصف الطبيعة الصامتة ، لكن هذه المرة مع وصف الأماكن و المباني و القصور و بمجيء القرن الخامس الهجري كانت الحضارة في الأندلس قد اكتملت صورتها ، و انقطعت بذلك صلة الإنسان بالبداءة و بيئتها ، و عرف القصور، و عاش فيها ، و شاهد الحدائق و البساتين ، فظهرت موجة من شعراء الوصف الذين قاموا بوصف بلدانهم ، و مدنهم، و تغنى كل ببلده و موطنه و من هؤلاء ابن عمّار الذي أعجب بالقصور التي شيدها الأندلسيون في قرطبة ، و سحرته شساعتها و جمالها و بساتينها ، و ما تتربع عليه حدائقها من ألوان الأزهار و أصناف الأشجار ، و النباتات و الطيور الغناء ، التي تعزف بصوتها الشجي أجمل الألحان ؛ ألهمته لقصر شيده بنو أمية بقرطبة ، يبهر الأعمى

(1) - مصطفى الغديري. شعر محمد بن عمّار الأندلسي. ص 121.

(2) - مصطفى الغديري . المصدر نفسه. ص 78.

(3) - مصطفى الغديري . المصدر نفسه. ص 78.

بجماله وثماره الشهية، و روائحه الزكية، و يشده ببراعة نقوشه، و منظره الرائق الزاهي إلى أن يكون شاعرًا، يقول ابن عمّار (1):

كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدِّمَشْقِ يُدْمُ فِيهِ طَابَ الْجَنَى وَ فَاحَ الْمَشْمُ .
مَنْظَرٌ رَائِقٌ، وَ مَاءٌ نَمِيرٌ وَ ثَرَى عَاطِرٌ، وَ قَصْرٌ أَشْمُ .

و يركز في هذين البيتين على رسم مشاهد الجمال في وصف أحد قصور سادات بني أمية و الذي يدعى بقصر الدمشق، و ما يحتوي عليه من مواطن البهاء و الإعجاب، و يرسم ما تضيفه الطبيعة على القصر من حسن، بفواكهها و مياهها و ما تخلفه فيها أزهارها بألوانها . من بهجة للرائي .

كما أنه وصف جدولاً يصب في غدير، و يعبره خصائص الإنسان يقول (2) :

وَ مُطْرِدِ الْأَجْزَاءِ يَصْفُلُ مِنْتَهُ صَبَا أَعْلَنْتَ سِرَّ النَّدَى فِي ضَمِيرِهِ .
كَأَنَّ حَبَابًا رِيحَ تَحْتِ حَبَابِهِ فَسَارَعَ يَرْمِي نَفْسَهُ فِي عَدِيرِهِ .
جَرِيحٌ بِأَطْرَافِ الْحَصَى كُلَّمَا جَرَى عَلِيهَا شَكَا أَوْجَاعَهُ بِخَرِيرِهِ .
شَرِبْنَا عَلَى حَافَاتِهِ دَوْرَ سَكْرَةٍ وَ أَكْثَرَ سُكْرًا مِنْهُ عَيْنًا مَدِيرِهِ .
وَ قَدْ لَاحَ نَجْمُ الصُّبْحِ بَادٍ كَأَنَّهُ مُطْرَقُ جَيْشٍ مُؤَذَّنٌ بِأَمِيرِهِ .

وصف الجدول هنا لم يعد ذلك الوصف القديم الجامد الذي ينصب على الظاهر فقط و إنما هو جديد يصف الأعماق المتألّمة من أثر فعل الحصى، في حين يتبدى نجم الصبح و كأنه جيش مؤذن بأمره .

هذا النوع الأول في باب الوصف، أما النوع الثاني في باب الوصف فهو ما يطلق

عليه:

1-2- وصف الطبيعة النباتية :

كَأَنَّ ابْنَ عَمَّارٍ بَوْصَفِ النَّبَاتَاتِ، فَوْصَفَهَا صِرَاحَةً وَ ضَمْنِيَا، وَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ يَصِفُ

الخرشف (1) :

وَ نَبَتَ مَاءٍ وَ تُرْبٍ جُودُهَا أَبَدًا لِمَنْ يُرَجِّيهِ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْبَحْلِ (2) .

(1) -مصطفى الغديري .شعر محمّد بن عمّار الأندلسي.ص93.

(2) - مصطفى الغديري . المصدر نفسه.ص84.

(1) - مصطفى الغديري ،شعر محمّد بن عمّار الأندلسي، ص93.

كَأَنَّهَا فِي جَمَالٍ وَ أَمْتِنَاعٍ دُرَى بَكَرٌ مِنَ الرُّومِ فِي خِذْرِ مِنَ الْأَسَلِ (3).

و قد حاول إيجاد صورة مماثلة لهذا النبات ، فشبّه ثمار الخرشف المحاط بأوراق تبدو كخدر البكر ، والخرشف أخضر تلفه أوراق ولا يبدو منه شيء ، و لقد وفق شاعرنا في هذا التصوير .

و يبدو كذلك أنه كان يحب التفاح و الرّمان ، إذ نستطيع أن نلمس ذلك في قوله عندما استهدى منه بعض إخوانه خمرًا، وبعث بها مع تفاحتين و رمانتين (4) :

خُذُوهَا مِثْلَ مَا اسْتَهْدَيْتُمُوهَا عَرُوسًا لَا تُزْفُ إِلَى اللَّئَامِ .
وَ دُونَكُمْ بِهَا تَذِييَ فِتَاةٍ أَضْفَتُ إِلَيْهَا خَدِّي غُلَامِ .

لقد وصف ابن عمّار الرّمان و التفاح ، وخلق عليهما من الصفات الإنسانية فتخيل الأول في صورة ثدي كاعب حسناء ، و الثاني (خدي غلام) في صورة التفاح الذي حان قطافه . هذا ما تعلق بالنوع الأول و الثاني ، أما النوع الثالث في باب الوصف فهو ما يطلق عليه:

1-3- الوصف الممزوج:

ونعني به وصف الطبيعة الذي يمهّد به للأغراض الشعريّة الأخرى أو يمزج بها. كالوصف الذي نجده في مستهل أو في ثنايا الخمريات ، و الغزليات ، فإن الشّاعر في هذا النوع من الوصف لا يقتصر فيه على الطبيعة وحدها، و ما تشتمل عليه من خمائل و رياض، و إنما يتطرق منها إلى وصف كل ما يؤمُّ هذه الأماكن للنزهة و التسلية، مازجًا بين جمال الطبيعة و ما تحتوي عليه من مجالس الأنس من عناصر المسرة و اللهو ، مقارنًا في وصفه بين تمايل الغصون اللدنة و القدود المياسة ، مشابها بين رقرقة الجداول ، و ما تنتجه الأباريق من أصوات في الكؤوس ، مقابلا بين ما يحدثه النّسيم من انتعاش في الطبيعة و ما تحدثه همسات الأحبة في القلوب الحرى التي أضناها العشق و تيمها الغرام ؛ و من الأمثلة على ذلك قول ابن عمّار الذي انتقل فيه من وصف الطبيعة إلى التغزل و الحديث عن الخمر (1) :

فِي مَجْلِسٍ بَسَطَ الرَّبِيعُ بَسَاطَهُ زَهْرًا وَ رَفْرَفَهُ عَيْنِكَ أَرَاكَ .

(2) -البَخَلُ: يفتح الباء و الخاء: لغة في البُخل. انظر: ابن منظور. لسان العرب. (مادة: بَخَل).

(3) -الأسل: كل شجر له شوك طويل و له عيدان مستوية ، و بها سميت الرماح بأغصانها المستوية .

(4) -مصطفى الغديري ، شعر محمّد بن عمّار الأندلسي. ص 107.

(1) -مصطفى الغديري ، شعر محمّد بن عمّار الأندلسي. ص 84.

سَقَطَ النَّدى فِيهِ سُقُوطٌ نِدَاكَ وَجَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِثْلَ سَنَاكَ .
رَوْضٌ تَفْتَحُ زَهْرُهُ فَكَأَنَّهُ مَقْلُ العَدَارَى حَدَقَتْ لِتَرَكَأ .
يَسْرِى عَلَى رِيحَانِهِ نَفْسُ الصَّبَا سَحْرًا فَيُوهِمُ أَنَّهُ ذِكْرَاكَ .

فابن عمار، كما نرى، قد إتخذ وصف الطبيعة في هذه المقطوعة مطية للتغزل و وصف الخمرة، ورسم لنا بذلك عدة صور منسجمة في منظر واحد، وقد وفق -في رأينا - في اختيار الألوان و مزجها، فبذبت لنا صورة لوحته جميلة منسقة.

وشعر الوصف -على هذا الإعتبار -يعد أصعب الأغراض الشعريّة انتشاءً و أرقها، و أجلها تعبيراً، إذ لا يمكن للشاعر أن يبدع في الوصف إلا إذا توفرت لديه، إلى جانب حاسته الذوقية المرهفة، موهبة التصوير و المحاكاة، إذ بقدر ما يدقق الوصف تتجلى الصورة واضحة، و هذا لا يتم إلا بالبراعة في التشبيه، و الدقة في اختيار الإستعارة، و حسن استعمال المجاز، و إلا بقيت الصورة مشوهة باهتة .

و يرى محمّد مجيد السّعيد أن وصف الطبيعة في الأندلس قد سلك طريقاً تدريجياً في تطوره أي أنه ابتداءً بوصف الجزئيات كوصف الوردة أو الزهرة، ثم تدرج في التوسع شيئاً فشيئاً إلى أن وصل في أواخر القرن الخامس إلى وصف مناظر أجمل كالحدائق بكل ما تضمه من ورود و أشجار، و جداول...و ما يصاحبها من خمر أو طرب، أو صيد. و يرى من جهة أخرى أن وصف الجزئيات لم ينعدم تماماً، و إنما تغلبت عليه القصائد الوصفية الطويلة التي تعنى بالمناظر الشاملة (2).

و نحن نوافق محمّد مجيد السّعيد في كون القصيدة الوصفية تغلبت على المقطعات الجزئية في أواخر القرن الخامس إلا أننا لا نجاريه بالنسبة لفكرة تطور القصيدة الوصفية عن المقطعات التي تعنى بوصف الجزئيات، ونحن نعتقد أن النوعين سارا جنباً إلى جنب منذ النشأة و لم يتطور أحدهما على حساب الآخر، فالكتب التي أرخت للأدب الأندلسي (1) تثبت وجود النوعين منذ أن ظهر الأدب العربي بالأندلس؛ ففكرة التطور من البسيط إلى المركب لا يصح أن تتخذ ميزاناً لكل شيء، وقد يتولد الجزئي عن الكلي خاصة في أمثال

(2) - محمّد مجيد السّعيد. الشعر في ظل بني عباد. ص 101 و ما بعدها.

(1) - انظر: عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس. دار النهضة العربية. بيروت. لبنان. 1976. ص 284. و جودت الركابي. في الأدب الأندلسي. دار المعارف. مصر. ط 2. 1966. ص 132.

هذه المواضيع التي يتطلب فيها دراسة الجزء بنوع من التركيز و التدقيق أكثر بكثير مما يتطلبه الكل.

و إذا اعتقدنا أن أدب أي أمة يعكس بالدرجة الأولى حياتها الاجتماعية بالمفهوم الواسع، فإن العرب بالأندلس قد عرفوا بميلهم لحياة الدعة و اللهو منذ أن رسخت أقدامهم في الجزيرة، و قد فشت مجالس الأُنس التي كانت تعقد في الرياض منذ أوائل الخلافة الأموية و قال فيها الشعراء حتى همَّ الخليفة المستنصر باقتلاع أشجار الكروم ليقضي بذلك على أسباب اللهو (2).

و الحقيقة، أنها لم تكن من الكثرة بالدرجة التي لاحظناها عليها في أواخر عهد الطوائف إلا أنها كانت موجودة على أية حال و إن كانت محاربة من طرف بعض العقلاء و المعتدلين الأمر الذي كفف في غلواء انتشارها و استهتار أصحابها؛ فعدم انتشار القصيدة الوصفية الكاملة التي تمزج بين وصف الطبيعة و مجالس الأُنس قبل أواخر القرن الخامس يرجع إذن إلى عدم انتشار هذه المجالس بالصورة المذهلة التي أصبحت عليها فيما بعد، لا إلى عدم قدرة الشاعر على استيعاب المناظر الكلية الشاملة للتعبير عنها، و هو ما يستنتج من كلام محمد مجيد .

و الذي أشاع مجالس الخلاعة هذه التي كانت سبباً في انتشار القصيدة الوصفية الشاملة لها في أواخر عهد الطوائف. هو في نظرنا رد فعل الشعب الأندلسي إزاء ما مُني به من نكسات في سبيل لَمّ شتاته، و ما أصيب به من نكبات على يد حركات الاسترداد التي هزت كل قيمه الروحية و السياسية؛ فأصبح يتأسى بهذه الأنواع من التسالي لتخدر إحساسه، و ليدفن فيها همومه هروباً من الواقع المر .

و الاستنتاج الذي يمكن الوقوف عليه. هو إن الوصف عند ابن عمّار يختلف في أغلبيه عن الوصف عند الجاهليين و الأمويين، و كذا العباسيين، و هو أقرب إلى الوصف الذي ظهر في قصور الأندلسيين (1)، حتى أنه متأثر به؛ فهو مواكب للتغييرات

(2) - أحمد بن محمد المقرئ التلمساني . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. ج 1 : ص 214.

(1) - و نقصد به الوصف الذي ظهر في قصور الأندلسيين، و تأثره ابن عمّار، بعد أن وافته الظروف فقفر من أسفل درك إلى أعلى ذروة، و صار له شأن عظيم في المملكة العبادية، إذا أصبح من أبرز شخصياتها الأدبية و السياسية.

التي جاء بها القرن الخامس الهجري في ميادينه المختلفة و دلالاته ، و في طبيعة الموصوف خاصة ما يتعلق منها بالطبيعة الصامته من أماكن و قصور.

2- علاقته بالمجتمع:

تجسدت علاقة ابن عمّار بمجتمعه من خلال احتكاكه بأفراده الذين خبرهم ، و سبر أغوارهم (2) ، و برز في إخوانياته المعبرة عن علاقته بالآخر في فترات السعادة أو الشقاء الحاملة لأحاسيس مرارة تنكر الإخوان و حلاوة مشاركتهم تجارب المسرّة و المجد، و عمل على إظهار الجوانب الإيجابية و السلبية في مجتمعه و تسهيلاً لدراستها نجزئها في العناصر الآتية:

1-2-1- شعر الإخوانيات :

هو تلك القصائد التي تتناول أوجه العلاقات الاجتماعية بين الشّاعر و بين شخصيات ذلك المجتمع «سواء أكانت عتاباً أم تعزية أم مراسلات عادية لدعم أواصر القربى و وشائجها ، و المحافظة على أصوات الإخاء ، و تمتين العلائق الإنسانية ، و هي أشعار تتكلم عن صلة الود ، فيها الحنين إلى الإخوان و الخلان و العتاب على بادرة صديق» (3) ، بعيداً عن تلك التي تتصف بكونها علاقات بحتة كالغزل ، أو كونها مرتبطة بمنافع ذاتية كالمدح، أو التي ترتبط بنفسية الشّاعر كالهجاء ؛ و لقد خاض ابن عمّار في هذا الغرض مركزاً على الرسائل الشعريّة التي بعث بها إلى الأحباب و الخلان:

1-1-2- الرسائل الشعريّة :

شهد عصر ملوك الطوائف ظاهرة التراسل بالشّعر ، حيث كان الشّعر لغة الرسالة على النحو الذي كان عليه النثر معبراً بذلك عن جميع الأغراض التي تحتويها الرسالة النثرية الإخوانية ، و كان من موضوعات مراسلات ابن عمّار: الدعوة إلى مجلس أنس، أو إجابة

(2) - انظر: هذا البحث. ص 48 و ما بعدها.

(3) - جبور عبد النور. المعجم الأدبي. دار العلم للملايين. طبعة 1. 1979. ص 09.

دعوة ، أو اعتذار ، أو إهداء، أو تهنئة ، و ما إلى ذلك من مختلف المعاني التي حملتها هذه الرسائل الشعرية :

2-1-1-1- الشكوى :

الشكوى، و الاستشكاء هو إظهار المرء ما به من مكروه أو مرض أو نحوه⁽¹⁾، و شكوى الشعراء هي تعبيرهم عما يعانونه من غم و حسرة بسبب الفقر و متاعبه، أو الدهر و نوائبه ، أو الحرب ، أو غدر الناس و حسدهم، أو كل ما ينغص على هؤلاء حياتهم⁽²⁾ . و الظروف الصعبة التي مر بها ابن عمّار من نكبة و سجن خلقت لديه ميلا إلى الشكوى يعبر بها عن شعوره بالظلم و الغبن، فكانت المقطوعات الشعرية التي يشكو بها مما أصابه إذ اجتمع عليه ظلم الحكام، و مأساة السجن و نكبته، و فقره ، و ظلم الأيام، و ظهر في مرضه و عجزه .

و قد أفادتنا شكاوى ابن عمّار كثيرا في دراسة حياته و تقلب الأيام به ، و معرفة شخصيته و تطلعاته ؛ على أن الميل إلى الشكوى طبع كتاباته الشعرية بطابع الحزن و عدم الاستقرار و صور شاعرا يتأرجح بين اليأس و الأمل؛ وكانت مقطوعاته الحاملة شكواه من أصدق شعره، و أقربه خلجات نفسه المنكسرة.

و من شعره يشكو صعوبة العيش ، و جفاء الناس، و جهلهم ، و ما يحيط به من دسائس و تمائم قوله⁽³⁾ :

هُوَ الْعَيْشُ لَا مَا أَشْتَكِيهِ مِنَ السَّرَى	إِلَى كُلِّ تَغْرِ أَهْلِ مِثْلِ طَاسِمِ.
و صُحْبَةِ قَوْمٍ لَمْ يَهْدُبْ طِبَاعَهُمْ	لِقَاءِ أَدِيبٍ أَوْ نَوَادِرُ عَالِمِ.
صَعَالِيكَ هَامُوا بِالْفَلَآ فَتَدَرَّعُوا	جُلُودَ الْأَفَاعِي تَحْتَ بَيْضِ النَّعَائِمِ.
نَدَامَى وَ مَا غَيْرُ السُّيُوفِ أَزَاهِرِي	لَدَيْهِمْ وَ مَا غَيْرُ الْغُمُودِ كَمَائِمِي.
وَ مَا حَالُ مَنْ خَلَى بِلَادَ أَعَارِبِ	وَ أَلْقَتْ بِهِ الْأَقْدَارُ أَرْضَ أَعَاجِمِ.

(1) - انظر : ابن منظور لسان العرب . مادة (شكأ).

(2) - محمد مجيد السعيد . الشعر في عهد المرابطين و الموحيدين بالأندلس . الدار العربية للموسوعات . طبعة 1985 . ص 217 .

(3) - مصطفى الغديري . شعر محمد ابن عمار الأندلسي . 101 .

ويتقاطع مع الشعراء الذين استشعروا وجودهم في زمان و مكان لا يليقان بهم، وبين أناس ديدنهم الغدر و عدم الوفاء، و الجاهل بينهم هو الحاطي، و العالم سوقه مبخوس و سلعته لا تروج، يقول⁽¹⁾ :

يُقَبِّحُ لِي قَوْمٌ مَقَامِي عِنْدَهُمْ وَ قَدْ رَسَفَتْ رِجْلَ السَّرَى فِي الْأَدَاهِمِ .
يَقُولُونَ لِي: دَعُ أَيِّدِي الْعَيْسِ إِنَّهَا تُؤَدِّي إِلَيَّ أَيْدِي الْمُلُوكِ الْخَصَارِمِ .
فَدَيْتُهُمْ لَمْ يَبْعَثُوا حِرْصَ عَاجِزٍ وَ لَا نَبَّهُوا إِذْ نَبَّهُوا طَرْفَ نَائِمِ .

يشكو ابن عمّار المجد الذي يرغب في تحقيقه، و يقف أعدائه عائقا دون ذلك و يزداد حزنه و أساه ، لأنه كلما حاول أن يحقق هدفاً و قفت الأيام في وجهه ، فلا ينال سوى الحرمان⁽²⁾ :

وَ لَكِنَّهَا الْأَيَّامُ غَيْرُ حَوَافِلٍ بِأَرْبِ أَرْيَبِ أَوْ حُرَامَةِ حَازِمِ
وَ إِنِّي لِأَدْعُو لَوْ دَعَوْتُ لِسَامِعٍ مُجِيبٍ وَ أَشْكُو لَوْ شَكَوْتُ لِرَاحِمِ
أُرِيدُ حَيَاةَ الْبَيْنِ ، وَ الْبَيْنُ قَاتِلٌ وَ أَرْجُو أَنْتِصَارَ الْدَّهْرِ ، وَ الدَّهْرُ ظَالِمِي

يتألم الشاعر من سوء الحال ، و الترددي الذي يعيشه ، و المكانة المنخفضة التي لا يستحقها و تبقى له الشكوى متنفساً يلجأ إليه في أوقات حرجه و ضيقه ، يقول⁽³⁾ :

وَ لَا بُدَّ مِنْ شَكْوَى وَ لَوْ بِنَفْسٍ يُسَكِّنُ مِنْ حَرِّ الْحَشَا وَ التَّرَائِبِ

عانى ابن عمّار من البؤس و الحرمان ، وشكا الأيام و الدهر الذي نزع منه ما كان يتمتع به ، و رفعته معاناته من ذل الأسر و شدة القيود و حبس الحرية إلى التوسل إلى ولي الأمر، أو مديح من يتشفع له عنده من وزير أو حاجب ، و هذا ما سنوضحه في الاستعطاف و العتاب .

2-1-1-2- الاستعطاف و العتاب:

يكثر ابن عمّار في الاستعطاف و العتاب ذكر همومه و استنجاذاً بأحد أصدقائه أو ثقاته ، أو لأحد أولياء الأمور طلباً للمساعدة أو عتاباً لمن لم يلتفت إليه إبان محنته » فالعتاب و إن كان حياة المودة و شاهد الوفاء ، فإنه باب من أبواب الخديعة تسرع إلى الهجاء (...) فإذا قلّ كان داعية الألفة و قيد الصحبة ، و إذا كثر خشن جانبه و ثقل صاحبه

(1)-مصطفى الغديري .شعر محمّد ابن عمّار الأندلسي .ص101.

(2)- مصطفى الغديري المصدر نفسه.ص 101.

(3)- مصطفى الغديري .المصدر نفسه.ص 32.

«(1) ، و يتميز هذا النوع- غالبا -بغلبة الشعور بالانسحاق خاصة أمام ولي الأمر الذي ينتظر منه المساعدة أو الصفح و الغفران .

و كتب عند قدومه ليزيد بن المعتمد، الملقب بالراضي، و يستشفعه ليتسلمه أسيرا قصيدة مطلعها(2) :

قَالُوا أَتَى الرَّاضِي، فَقُلْتُ لَعْلَهَا خُلِعَتْ عَلَيْهِ مِنْ سِمَاتِ أَبِيهِ

و يتوسل إليه راجيا الصفح، مقرا بذنبه، يقول (3) :

يَا أَيُّهَا الرَّاضِي وَ إِن لَّمْ يَلْقَنِي مِنْ صَفْحَةِ الرَّاضِي بِمَا أَدْرِيهِ

هَبْكَ إِحْتَجَبَتْ لَوَجْهِ عُدْرٍ بَيْنَ بَدَلِ الشَّفَاعَةِ أَي عُدْرٍ فِيهِ؟

خَفَّفَ عَلَى يَدِكَ الْكَرِيمَةَ أُسْطُرًا فِي مَنْ أَسْرَتَ فَتَنْتَنِي تَفْدِيهِ

و كتب إلى المعتمد ابن عباد من السجن مستعطفا في قصيدة مطلعها(4) :

سَجَايَاكَ إِن عَافَيْتَ، أُنْدَى وَ أَسْمَحُ وَ عُدْرُكَ، إِن عَاقَبْتَ أَجْلَى وَ أَوْضَحُ

ويضمنها زفرات قلبه المكلوم، و يصيح بأهات الندم، و يرجو العفو (5) :

فَإِنَّ رَجَائِي أَنَّ عِنْدَكَ غَيْرَ مَا يَخْوِضُ عُدْوَى الْيَوْمِ فِيهِ وَ يَمْرَحُ

وَ لِمَ لَا، وَ قَدْ أَسْلَفْتُ وُدًّا وَ خِدْمَةَ يَكْرَانِ فِي لَيْلِ الْخَطَايَا فَيُصْبِحُ

وَ هَبْنِي قَدْ أَعْقَبْتُ أَعْمَالَ مُفْسِدٍ أَمَا تُفْسِدُ الْأَعْمَالَ ثَمَّتَ تَصْلَحُ

أَقْلَنِي لِمَا بَيْنِي وَ بَيْنَكَ مِنْ رِضَى لَهُ نَحْوِ رُوحِ اللَّهِ بَابٍ مُفْتَحُ

وَ عَفَّ عَلَى آثَارِ جُرْمٍ سَلَكَتُهُ بِهِبَّةِ رُحْمَى مِنْكَ تَمْحُو وَ تَصْفَحُ

و كتب إليه أيضا من السجن قائلا (1) :

يَقُولُ قَوْمٌ :إِنَّ الْمُؤَبَّدَ قَدْ أَحَالَ فِي فِدْيَتِي عَلَى نَقْدِهِ

يَا قَوْمُ مَاذَا الشَّرَاءُ ثَانِيَةً تَرَى لِمَعْنَى يَرِيبُ مِنْ عِنْدِهِ؟!

أَوْحَشَنِي، وَ السَّمَاخُ عَادَتُهُ سَمَاخُهُ بِالْغَلَاءِ فِي عِنْدِهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِنَّ يَكُنْ حَرَجًا فَلَيْسَ فِي مِثْلِهِ سِوَى حَمْدِهِ

(1)- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني .العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده .ج 2: ص 152.

(2)- مصطفى الغديري .شعر محمد ابن عمار الأندلسي .ص126.

(3)- مصطفى الغديري .المصدر نفسه.ص 127.

(4)- مصطفى الغديري .المصدر نفسه.ص 37.

(5)- مصطفى الغديري .المصدر نفسه.ص 38.

(1) - مصطفى الغديري .شعر محمد ابن عمار الأندلسي .ص59.

و يتقلب بين أشعة الأمل وقصف اليأس و عصفه، ولا يبقى له إلا توسل الله مفرج الكربات و مقيل العثرات و مقلب القلوب يقول⁽²⁾ :

يَا رَبِّ بَشِّرْ بِرَحْمَةٍ ٍ وَحَيَا يُؤْنِسُ مِنْ بَرِّقِهِ وَ مِنْ رَعْدِهِ

هذه الشواهد تظهر ابن عمّار في حلّة من الذل و المسكنة أمام أوليائه ، و كأن كل ما يريد . هو الخلاص من سجنه بأية طريقة كانت ، و لو بالتملق و إراقة ماء الوجه . والشكوى عنده مصحوبة بالمدح دائماً كما يلاحظ⁽³⁾، فهو لا يجروء عليها الشكوى إلا بعد أن يمدح ، مستمداً معاني الثناء من المهانة التي هو فيها ، كما في عدّ سجن المعتمد له رفعة و جاهاً ، و قيده في قدمه تاجاً يزين رأسه . و بعيداً عن لغة الحسرة و الأسى ، ينتقل ابن عمّار إلى الحديث عن التهاني التي هي من أغراض الشعر العربي في كافة عصوره .

2-1-1-3- التهنة و الإهداء :

يقرب هذا النوع من المديح لتضمنه إياه ، و لابن عمّار مقطوعات في التهنة و الإهداء ، إذ إنّ مركزه في الدولة و قربه من الملوك و الأمراء ؛ جعله ينتهز الفرص التي تهيء له الحظوة لديهم ، و كانت الأعياد خير موسم لذلك يهدي فيها ابن عمّار أوليائه الأشعار و المدائح تعبق بأريج التهاني . و لما كان للعيد أهمية خاصة ، وهو مناسبة سارة يتبادل فيها الناس التهاني ، فقد تميز -شعره هذا - و شعر المديح عن بقية شعره بحسن الإخراج و فخامة اللفظ ، وتخّيرهما طريقةً ليواجه بها الأمراء و الكبراء- و إن كانت لا يخلوها معظم شعره- تترجم التبسيط و السهولة و صدق المشاعر .

يقول ابن عمّار مهناً المعتمد ، وقد ولد له ابن و ابنة في يوم واحد⁽¹⁾ :

إِهْنَأُ بِنَجْلَيْكَ مِنْ أَنْثَى وَ مِنْ دَكْرٍ لَا يَعْدَمُ الضَّوْءَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ

و أهدى إلى ذي الوزارتين ابن لبّون⁽²⁾ تفاحاً و إجاصاً ، و كتب معهما⁽³⁾ :

(2) - مصطفى الغديري . شعر محمّد ابن عمّار الأندلسي.ص 59.

(3) - انظر: هذا البحث. ص 99-100.

(1) - مصطفى الغديري . شعر محمّد ابن عمّار الأندلسي. ص 70.

(2) - ذي الوزارتين ابن لبّون : هو لبّون بن عبد العزيز بن لبّون كان قاضياً وزيراً في بلنسية أيام أبي بكر بن عبد العزيز و من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذي النون ، و كان معدوداً من الأجواد ، موصوفاً بتجويد القريض ، و أثبت ما يدل على نفاسة سبكه ، و طالت إقامته في كنف ابن رزين إلى أن توفي في حدود 500هـ . انظر :الفتح بن

خُدْهَا كَمَا سَفَرَتْ إِلَيْكَ خُدُودُ أَوْ أَوْجَسْتَ فِي رَاحَتَيْكَ نُهُودُ
 حَدْرًا مِنَ التُّفَاحِ نَشْرًا بَيْنَهَا وَ لَهَا بِأَعْصَانِ الْجِنَانِ عُقُودُ
 وَ شَفَعْتُ بِالْإِجَاصِ قَصْدًا إِنَّهُ شَكْلُ الْجَمَالِ وَحُدَّةُ الْمَحْدُودُ
 عُدْرًا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا هِيَ أَوْجَةٌ بِيضٌ تَقَابِلُهَا عُيُونٌ سُودُ
 إِيهِ وَ عِنْدِي مِنْ فِرَاقِكَ لَوْعَةٌ يُعْزِي إِلَيْهَا ثَابِتٌ وَ يَزِيدُ (4)
 اللَّهُ لِي لَنْتَنَا الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا هَذَا الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ مَحْسُودُ

و يلاحظ في هذه القصيدة أنه يستغل الإهداء وسيلة للسؤال.

وفي مناسبة الابلال من علة ، نظم مقطوعة في التهنية ، يقول فيها (5) :

رَوْضٌ تَفْتَحُ زَهْرَةٌ فَكَانَتْهُ مَقْلُ الْعَدَارَى حَدَقَتْ لِتَرَكَأَا
 يَسْرِي عَلَى رِيحَانَةٍ نَفْسُ الصَّبَا سَحْرًا فَيُوهِمُ أَنَّهُ ذِكْرَاكَأَا
 رِدْ مَوْرِدِ اللَّذَاتِ عَدْبًا صَافِيًا فَلَقَدْ وَرَدَتْ الْمَجْدَ قَبْلُ كَذَاكَأَا
 لَمْ تَرَوْ مِنْ رَاحٍ وَ لَا مِنْ رَاحَةٍ حَتَّى إِرْتَوَتْ بِدَمِ الْعَدَاةِ قَنَّاكَأَا

فمثل هذه المقطوعة حققت الغرض المراد بإيجاز ، فامتازت أبياتها بسلاسة أسلوبها و سلامة عباراتها .

و يقدم الشاعر تهنية حارة إلى المعتمد بن عبّاد ، عند منصرفه ظافراً من غزوة ، و من ذلك قوله (1) :

أَنْتَ الْقَرِيبُ مِنَ النُّفُوسِ مَحَلَّةٌ هَذَا وَ إِنْ عَرَّشْتَ فِي كِيَوَانَا
 وَ اللَّهُ لَا صُحَّحَتْ أَيْمَانُ امْرِئٍ حَتَّى يُصَحَّحَ حُبُّكُمْ إِيْمَانَا
 إِنْ كُنْتَ مُعْتَقِدًا هَوَاكُم مِلَّةٌ فَلَقَدْ تَلَوْتُ بِمَدْحِكُمْ قُرْآنَا
 كَيْفَ السَّبِيلُ لِشُكْرِ مَا أَوْلَيْتَنَا وَ نَدَاكَ أَفْحَمَ مِنْ أَعَدَّ لِسَانَا
 حَمَلْتَنَا ثَمَرَ الْيَادِي مُفْضِلًا أَشْفَقُ فَقَدْ أَثْقَلْتَنَا أَعْصَانَا

حاقان .قلائد العقيان في محاسن الأعيان .ص 111.و أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار .الحلة السيرة ج 2:ص 168.

(3) - مصطفى الغديري .شعر محمد ابن عمّار الأندلسي .ص44-45.

(4) - ثابت ويزيد: يعني ثابت قطنة الذي كان ملازماً ليزيد بن المهلب الى أن مات هذا في يوم العُقر قرب كربلاء.انظر : ابن قتيبة الدينوري . الشعر و الشعراء . طبعه وحققه و فهرسه : احسان عياس . دار صادر . بيروت . 1969 . ج 2 : 526 .

(5) - مصطفى الغديري .شعر محمد ابن عمّار الأندلسي .ص84.

(1) - مصطفى الغديري .شعر محمد بن عمّار الأندلسي .ص11.

أَمْطَرْنَا سُحْبَ الْمَكَارِمِ ثَرَّةً أَمْسِكْ فَقَدْ خَوَّفْتَنَا الطُّوفَانَا

و المقصود من التهنة واضح ، إذ هي تتحول في جانب منها إلى دعوة من الشاعر لبسط يدي المعتمد بن عباد ، و تحريك أنامله لإسباغ فضله على الممدوح ، لا سيما و انه من أولئك الذين تطلعوا إلى مجده ، و قصدوا منزلته من الكرم ؛ و مثل هذه المقطوعة حققت الغرض المراد بإيجاز و سهولة ، و حسن استخدام لمعاني التهنة ، حيث أقام عليها مبتغاه ، و هذا ما ذهب إليه حازم القرطاجني في قوله : « فأما طرق التهاني فيجب أن تُعتمد فيها المعاني السارة و الأوصاف المستطابة ، و أن يستكثر فيها من التيمن للمهنا ، و أن يُوتي في ذلك ما يقع وفقته و يتحذر من الإلمام بما يمكن أن يقع منه في نفس المهنيء بشيء ، و يتجنب ذكر ما في سمعة تنغص له»⁽²⁾ .

2-1-1-4- الاعتذار:

شهد عصر ملوك الطوائف - في فترات متفرقة- هذا اللون من الشعر ، و كان تارة بين أبناء الأسرة العبادية ، و تارة بين وزرائها ، و أخرى بين أبناء الأسرة العبادية و بعض وزرائها ، كتلك التي كانت بين المعتمد بن عباد و ابن عمّار ، و حين يشتد غضب المعتمد على ابن عمّار ، يسرع الأخير طمعا في الصفح حيناً ، و إتقاءً للشّر حيناً آخر .

لقد أبعد ابن عمّار عن إشبيلية أيام خلافة المعتضد بن عباد مرتين ، الأولى حينما أبعد المعتضد إلى سرقسطة التي أقام فيها مدة ، و الثانية أيام خلافة المعتمد بن عباد إثر زلة ارتكبها بحقه ، فنشّفع بولي العهد يزيد بن المعتمد ، الملقب بالراضي ؛ و يمكننا أن نعدّ قصائده نموذجاً لهذا المحور حيث عادت مرآة الشاعر تعكس صورة الأنا راجحة ، بعد أن كانت تعكس أشواق أبدلها أمليه ، من هنا يتأتى هذا النغم الحزين يظهر: إن عذاب الحاضر يتصل بعذاب الماضي .

و في قصائد الاعتذار هذه يتردد ابن عمّار بين اليأس و الأمل و يدفعنا ذلك إلى ملاحظة: إن نفس الاعتذار الذي يصدر عن حالته النفسية يغلب على ما عرف عنه من دهاء و طموح ، فهو لا يتصوّر نفسه يعيش بعيداً عن إشبيلية أو عن الأمراء العباديين .

(2) - حازم القرطاجني. منهاج البلغاء و سراج الأدباء. ص 352.

و من القصائد التي تؤكد ما ذهبنا إليه قصيدة نظمها إثر الجفوة الأولى (1) :

لَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَ مَا أَنَا حَارِثٌ وَ لَا أَنَا مِمَّنْ غَيَّرْتُهُ الْحَوَادِثُ
وَ لَا شَارَكَتَكَ الشَّمْسُ فِيَّ وَ إِنَّهُ لَيُنَايَ بِحِظِّي مِنْكَ ثَانٍ وَ ثَالِثُ
فَدَيْتُكَ ، مَا لِلبَشْرِ لَمْ يَسِرْ بِرَقَّةً وَ لَا نَفَحَتْ تِلْكَ السَّجَايَا الدَّمَائِثُ
أَظُنُّ الَّذِي بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَذْهَبَتْ حَلَاوَتَهُ عَنِّي الرَّجَالُ الْأَخَابِثُ .
تَنَكَّرْتَ ، لَا أَنِّي لِفَضْلِكَ نَاكِرٌ لَدَيَّ وَ لَا أَنِّي لِعَهْدِكَ نَاكِثُ
وَ لَكِنْ ظُنُونٌ سَاعَدْتَهَا تَمَائِمٌ كَمَا سَاعَدَتْ مَنِّيَ الْمُثَانِي الْمَثَالِثُ
أَبْعَدَ مَضَتْ خَمْسٌ وَ عِشْرُونَ حِجَّةً تَجَافَتْ بِنَا تِلْكَ الْخُطُوبُ الْكَوَارِثُ

و يخلص بمدحه إلى إقرار وفائه للممدوح و فدائه له، يقول (2) :

وَ هَلْ أَنَا إِلَّا عَبْدٌ طَاعَتِكَ الَّتِي إِذَا مِتُّ عَنْهَا قَامَ بَعْدِي وَارِثُ؟

تبدأ القصيدة بالشاعر موزع النفس بين اليأس و الرجاء ، فيتوسل بصورة العيد ، و هذه الصورة مدعاة لليأس ، لذلك يعود فيتشقق بحقائق خدمته في الدولة ، و لولي العهد بشخصه فيقول (3) :

سَتَذُكُرُنِي إِنْ بَانَ حَبْلِي وَ أَصَبَحْتَ تَنْنُ بِكَفَيْكَ الْحِبَالُ الرَّثَائِثُ
وَ تَطْلُبُنِي إِنْ غَابَ لِلرَّأْيِ حَاضِرٌ وَ قَدْ غَابَ مِنِّي لِلْخَوَاطِرِ بَاعِثُ
أَعُودُ بِعَهْدِ نُطْتُهُ بِكَ أَنْ تَرَى تَحُلُّ عُرَاهُ الْعَاقِدَاتُ النَّوَافِثُ

لقد برّح الألم بابن عمّار و تكاثرت عليه السعيات و المكائد و كبر حنينه للمعتمد ، وخاف هجرًا طويلًا و غضبًا من المعتضد بن عباد و هو في حالته تلك ، فتوسل إلى التعبير عن هذا بصورة العبد و تفنن في إبراز هذه الصورة التي تجسّد الحالة التي يعيشها .

و من القصائد التي تعود لفترة الهجر – من طرف المعتمد- هذه القصيدة التي نجده فيما يصدر عن موقف شديد الضعف ، و كأنه لم يبق له في حياته سوى علاقته بالمعتمد ، إذ يقول (1) :

فَإِذَا انْكَسَرَتْ فَتَمَّ خَدْنُ "جَابِرٍ" وَ إِذَا ضَلَلْتُ فَتَمَّ آخِرُ هَادٍ (2)

(1)- مصطفى الغديري .شعر محمّد بن عمّار الأندلسي .ص35-36.

(2)- مصطفى الغديري . المصدر نفسه . ص36.

(3)- مصطفى الغديري .المصدر نفسه.ص36.

(1)- مصطفى الغديري . شعر محمّد بن عمّار الأندلسي .ص 46.

و تَنَيْتُ عَزْمِي عَنْ مَسِيرِ هَزْنِي سَعْدِي إِلَيْهِ وَ حَتَّى إِسْعَادِي

إلى أن يقول (3) :

لَكِنْ عَجَزْتُ فَمَا اسْتَقَلَّ بِنَشَاتِي مَاءُ الْفِرَاتِ وَ لَا تَرَى بَغْدَادِ

عُذْرًا فَفِيكَ لِكُلِّ طَالِبِ حُجَّةٍ خَصَمٌ أَلَدٌّ وَ وَجْهٌ عُذْرٍ بَادٍ

فالقصيدة تبدأ مباشرة بعرض حال الشاعر ابن عمّار ، ثم تستمر بطولها على هذا النفس من الاعتذار تجسد دلالات الضعف و سوء الحال المفضي إلى طالباً الرفق في المعاملة، تؤكد الوفاء الموجب للعتو و الصفح (4):

أَفِيكَ مِنْ حُرٍّ تَعَبَّدَ بَرُّهُ شُكْرِي وَقَلُّ لَهُ الْفِدَا وَ الْفَادِي

هذا البيت يعكس عجز ابن عمّار و ضعفه و خَوْرِهِ ، فهو لا يستطيع أن يصبر أو يتجلّد على هجر الملك له .

و بعد هذا البيت الذي ملأه رقة و اعتذاراً ينتقل إلى المدح و يكرر المعاني التقليدية التي تعارف عليها العرب، وصارت مصطلحاً جاهزاً ؛ و حسبنا في هذا رأي ابن رشيق القائل : « و ينبغي للشاعر ألا يقول شيئاً يحتاج إلى أن يعتذر منه ، فإن اضطره القدر إلى ذلك و أوقعه فيه القضاء ، فليذهب مذهباً لطيفاً ، و ليقصد مقصدًا عجيباً ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه ، و كيف يسمح أعطافه و يستجلب رضاه » (1).

و قبل أن نتحدث عن الصورة النهائية التي يمكن أن نخرج بها دراسة الموضوعات و الأغراض في شعر ابن عمّار الأندلسي ، نريد أن نشير إلى: إن هناك بعض المتفرقات من نتف و قصائد تدخل في أغراض أخرى كالغربة و الحنين ، تختلف في عددها من نتفة إلى نتفتين إلى قصيدة واحدة ، لذلك لم نفردها دراسة خاصة بالعرض الذي تنتهي إليه ، إذ لا يمكن تحديد ملامح عرض معين انطلاقاً من قصيدة واحدة او نتفة ، و انتهاءً عندها ، لذلك تركناها مدمجة في المدونة على أن تكون الاستفادة منها في بقية الدراسة .

(2) - المقصود بجابر و هادٍ الرجلان اللذان سلما الشاعر أسيراً للمعتمد حين ثار عليه و أراد أن يستقل بمرسية انظر : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار . الحلة السيرة . ج 2. ص 150.

(3) - مصطفى الغديري . شعر محمد بن عمّار الأندلسي . ص 48.

(4) - مصطفى الغديري . المصدر نفسه . ص 48.

(1) - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده . ج 2: ص 167.

و لم نلاحظ من خلال دراسة الموضوعات و الأغراض أي اختلاف أو خروج عن المؤلف ، يستحق الوقوف عنده و إفراده بدراسة معمقة في البحث ، فتنوعت موضوعات – المدونة التي بين أيدينا – و تعددت تبعًا لما فرضته الظروف السياسية والاجتماعية لإشبيلية ، و ما صنعه الفكر ، و ما جادت به قريحة ابن عمّار ، فلا يقف عند لون أو غرض معين ، بل كان باقات شعرية مختلفة الأغراض ، لا تبتعد عن الموضوعات الكلاسيكية التقليدية التي عهدها العصر الأدبي القديم ، تجعل الحاكم هو الممدوح الذي تعلق به المادح طمعًا في الحصول على عطائه و رغبة في تبوؤ أسمى المراتب و أرقاها.

نظر ابن عمّار إلى المرأة نظرة حسية ، و وصف جمالها ، و شكى ما أحدثه الحب في نفسه ، فقد أصابه التحول ، و كادت روحه أن تزهب ، و شذ حين فتن بالغلمان و أدار غزله عليهم .

و جسد شعره الوصفي علاقته بالطبيعة ، و كانت إخوانياته خير مترجم لعلاقته بالمجتمع.

إن الحديث عن الموضوعات و الأغراض الشعريّة يتطلب الوسيلة التي تقدمها للقارئ فتنثير شعوره ، وتحرك انتباهه تلك الوسيلة تتمثل في اللغة بألفاظها المختلفة ، من صور ، و تراكيب ، و أصوات ، و هذا ما سنقوم بدراسته في الفصل الثالث ، مركزين على الألفاظ و التراكيب المختلفة التي استعان بها الشاعر ، و الصور الشعريّة و أنواعها، و نختم بإيضاح البناء الصوتي ببحوره و إيقاعاته .